من أمثال المؤمنين

في

القرآن الكريم

دراسة أدبية تحليلية

إعداد

د/ عبادة إبراهيم أحمد

قسم الأدب والنقد

بسم الله الله الرحمن الرحيم

نحمد الله ونستعينه ونستهديه ، ونعوذ به من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد شهادة الإخلاص ، وأصلي وأسلم على خير معلم ، وأفصح من نطق بالضاد ، وأبلغ من شدا بالبيان - صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلم تسليمًا كثيرا .

وبعد

فالإيمان أساس الأسس ، والركن الركين الذي من تمسك به فاز وسعد عصمة لمن صحبه ، وفوز الدنيا والآخرة ، ولا حياة كريمة بدونه ، ولا نجاة إلا به ؛ به يدخل المؤمنون الجنة مهما قل عملهم ، وبدونه لا يرى المشركون الجنة ولا يشمون رائحتها مهما كثرت أعمالهم ، فهو المصدر والنبع ، ومنه وإليه يعود كل عمل صالح وهو مرجع كل خير بشوش يزين وجه الحياة ، وصدق من قال :

إذا الإيمان ضاع فلا إيمان ... ولا دنيا لمن لم يحي دينا

ومن رضى الحياة بغير دين ... فقد جعل الفناء لها قرينا

به يرفع الله تعالى ويخفض ، ويعز ويذل ، ويؤتي وينزع ، وينصر ويهزم ؛ رفع الله به قوما فجعلهم للخير قادة وللعالم سادة ، وللهدى أعلام ، وعليه أدلاء ، أشادوا ممكلة الخير رغم ضعف الوسائل ، وقلة الإمكانات وتفاهة الأسباب ، فلم يكن عندهم مال كما عندنا ، ولا

رجال كعددنا ، ولا علم كعلمنا ، ولا سلاح كسلاحنا ، وإنما كان عندهم إيمان بالله ، وقلوب عامرة به ، فرضى عنهم وأرضاهم : ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾[1] ، كانوا جيلاً اعتز بالإيمان، واعتصم بالحق كانوا كالشمس للدنيا والعافية للناس لم يمنعهم مانع ،لم يعرفوا مستحيلا رهبان بالليل فرسان بالنهار ، فإذا فتشت عن السر الدفين ، والأصل المكين لذلك وجدت قلوبًا امتلأت يقينًا وعمرت إيمانًا دفعها إلى مراقى المجد والفلاح ، مستعذبة التضحية ، مسترخصة الغالي والنفيس ، حتى أشادوا ملكا عظيمًا في فترة وجيزة ، ورهبهم الجميع ، شهد لهم عدوهم : «لا قبل لي بقوم لو أرادوا خلع الجبال لخلعوها » إنه الإيمان وآثاره ؛ شهد الله لهذا الجيل بالتفوق والامتياز والإيمان ، فقال: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾[2].

ولقد بلغ الإيمان ببعض الصحابة درجة قال فيها : « لو كشف عني الحجاب لما ازددت يقينا » ولعظم الإيمان وخطر أثره في حياة الفرد المسلم والجماعة المسلمة آثرنا أن نخصه بالدرس من خلال أمثال المؤمنين في القرآن الكريم لنرى كيف يرعى الله المؤمنين وكيف ينصرهم ويثبتهم ويدافع عنهم ، ترغيبًا لغيرهم في اللحاق بركب الإيمان والانضمام لجماعة المؤمنين .

فما الإيمان ؟

الإيمان لغة : التصديق القلبي ، قال تعالى حكاية عن إخوة

(١) المجادلة : ٢٢.
(٢) آل عمران : ١١٠.

يوسف: ﴿ وما أنت بمؤمن لنا﴾ أي بمصدق ، يعني الإذعان والقبول له والتكليف بذلك .

وشرعًا : التصديق بكل ما جاء به النبي - ﷺ - واعتقاده اعتقادًا جازما كالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء والقدر والتصديق بالأوامر والنواهي »[1] .

وجمهور الحنفية والمعتزلة أن الإيمان والإسلام متحدان ، وعند أبي الحسن الأشعري أنهما متباينان ، والصحيح ما قاله أبو منصور الماتريدي: إن الإسلام معرفة الله بلا كيف ولا شبهة ومحله الصدر ، والإيمان معرفته بالإلهية ومحله داخل الصدر ، وهو القلب والمعرفة بالله معرفة بصفاته ومحلها داخل القلب وهو الفؤاد والتوحيد معرفة الله بالوحدانية ومحله داخل الفؤاد ، وهو السر ، فهذه عقود أربعة ليست بواحدة ولا متغايرة ، فإذا اجتمعت صارت دينًا ، وهو الثبات على هذه الخصال الأربع إلى الموت»[2].

والإسلام : لغة : الانقياد والاستسلام ، ومنه إيمان الأعراب الذين قال الله تعالى فيهم : ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[3] .

وشرعًا : انقياد ظاهري مع اعتقاد باطني بكل ما جاء به النبي -ﷺ- وعلم من الدين بالضرورة كالصلاة والزكاة والصوم والحج ، فكل من الإيمان والإسلام المنجيين لا ينفك عن الآخر ، وكل مؤمن مسلم وكل مسلم مؤمن[4] .

(١) الدين الخالص للسبكي -٤ .
(٢) الكليات -١١٢.
(٣) الحجرات -١٤.
(٤) الدين الخالص للسبكي -٤.

وهو على نوعين :

أ- دون الإيمان ، وهو الاعتراف باللسان ، وإن لم يكن له اعتقاد وبه يحقن الدم .

ب- فوق الإيمان ، وهو الاعتراف مع الاعتقاد بالقلب والوفاء بالفعل[1] .

وعن بعض المشايخ : الإيمان تصديق الإسلام ، والإسلام تحقيق الإيمان[2] .

وللإيمان أركان معروفة ، وهي الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء والقدر جمعتها الآية الكريمة : ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾[3] .

وعن هذه المفاهيم والمعاني وبالقدوة الحسنة المثلى لرسول الله -ﷺ- انطلق المؤمنون في كل زمان ومكان يعملون لرفع راية لا إله إلا الله محمد رسول الله .

ومنذ أعلن الرسول - ﷺ - دعوته في مكة ، وهو يبث الإيمان في قلوب أتباعه ويؤصل في جذور قلوبهم دعائمه ، طوال ثلاثة عشر عامًا ، هي عمر الدعوة في مكة ، حتى يستطيعوا اجتياز هذه المرحلة بكل

(١) الكليات - ١١٢ .
(٢) الكليات - ١١٣ - بتصرف .
(٣) البقرة - ٢٨٦ .

تبعاتها، ويتحملوا عناءها ، وما صبه مشركو مكة عليهم من جام غضبهم ألوانًا وأشكالاً ، وهم يصبرون ويتصبرون ، فقد كانوا قلة مستضعفين ، وكان منهم من يكتم إيمانه خوفًا من المشركين ، وتحت ضغط العذاب والإيذاء كان الكفار ينالون منهم ، ولكنهم لم يتراجعوا وكانت الدعوة إلى الصبر والثبات وتحمل الإيذاء والعذاب حتى يأتي نصر الله ، فكانت الأمثال القرآنية تسير في هذا المجرى موائمة للزمان والمكان ، وتضرب أيضًا المثل لرسول الله - ﷺ - بالأنبياء السابقين وموقف أممهم منهم وعاقبتهم ، وأن كل الأنبياء مبتلون ، وأشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل .

ومع الدعوة بدأ الصدام وتضاعف الحقد في النفوس ، وتأججت النار في الصدور ، فلجأوا إلى أسلوب العسف والبطش والقمع والتعذيب يسومون به ضعاف المؤمنين سوء العذاب ، فها هو الرسول -ﷺ- يمر على آل ياسر وهم يعذبون ، فيقول : « صبرًا آل ياسر ، فإن موعدكم الجنة » استشهدت سمية ، ومات ياسر ، وفي عمار نزل قول الله تعالى : ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾[1] .

وبعد أن قتلوا أباه وأمه تلفظ لهم بالكفر ظاهرًا فقيل للنبي - ﷺ - قد كفر عمار ، فقال : كلا والله إن الإيمان قد خالط بشاشة قلبه » وفيه

(١) العنكبوت الآية : ٢ .

نزل قول الله تعالى : ﴿ من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله ﴾[1].

وكان رضى الله عنه يعذب حتى لا يدري ما يقول .

وممن كان يعذب في الله خباب بن الأرت - رضي الله عنه - وكان حدادًا يعمل لمولاته « أم أنمار » ، وكانت تأخذ الحديدة وقد أحمتها في النار فتضعها على رأسه ، فشكى ذلك لرسول الله - ﷺ - فقال « اللهم انصر خباب» فاشتكت مولاته رأسها ، فكانت تعوي كالكلب من شدة الألم ، فقيل لها : اكتوي .. فكانت تأمر خبابًا فيأخذ الحديدة فيكوي بها رأسها ، وعن خباب - رضي الله عنه - قال : لقد رأيتني يومًا وقد أوقد لي نار ووضعوها على ظهري فما أطفأها إلا ودك ظهري أي (دهنه) وعنه - رضي الله عنه - قال أتيت النبي - ﷺ - وهو متوسد برده في ظل الكعبة ، وقد لقينا من المشركين شدة ، فقلت : يا رسول الله : ألا تستنصر لنا ، ألا تدعوا الله لنا ، فقال : اصبروا فإن من كان قبلكم ينشر بالمنشار من مفرق رأسه إلى أسفل قدمه فلا يصرفه ذلك عن دينه ، ويمشط بأمشاط الحديد ما بين جلده وعظمه فلا يصرفه ذلك عن دينه» ثم أدلى بالبشرى فبدد اليأس وأطاح بعوامل الهزيمة والاستسلام فقال : «والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخشى إلا الله تعالى، أو الذئب على غنمه ، ولكنكم قوم تستعجلون» وبلال تحت وطأة التعذيب يقول : أحد أحد .

(١) النحل - ١٠٦ - بقية الآية ولهم عذاب عظيم .

وهكذا توالى التعذيب على المستضعفين فنزلت الأمثلة لعلاج أدواء هذه المرحلة تأمر بالصبر والثبات وعدم استعجال النصر ودفع ثمن الجنة: ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب ﴾[1]، ودعاهم للوفاء بعهدهم مع الله ورسوله وألا يتراجعوا في عهدهم في قوله تعالى : ﴿ ولا تتخذوا أيمانكم دخلا بينكم فتزل قدم بعد ثبوتها وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله ولكم عذاب عظيم ﴾[2]، وضرب لهم مثلاً لهداية الله وأنواره.

وضرب المثل للنبي - ﷺ - بنبي الله داود - صلوات الله وسلامه عليهم جميعًا - ﴿ وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب إذ دخلوا على داوود ففزع منهم قالوا لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصراط إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة ... ﴾[3]، وهكذا كانت أمثال هذه المرحلة تدعو الرسول - ﷺ - أن يتأسى بالأنبياء السابقين ، وتأمر المؤمنين معه أن يتأسوا بالمؤمنين من الأمم السابقة حتى يستحقوا دخول الجنة ، لأن الجنة لها ثمن ، ولابد من دفع الثمن ، والنصر له ميعاد .

أما في المدينة وبعد الهجرة فقد تغيرت الأوضاع ، وقام المجتمع

(١) البقرة : ٢١٤.
(٢) النحل : ٩٤ .
(٣) ص : ٢٣.

المسلم والدولة المؤمنة ، وأصبح للمسلمين صولة وجولة فعلا صوتهم ورهب جانبهم وحل النفاق من بعض من دخلوا في الإسلام ظاهراً وأبطنوا الكفر وهم يكنون العداوة للمسلمين ، وينتهزون الفرص لبث الفرقة ، وزعزعة الصف المسلم ، حل ذلك محل التعذيب والإيذاء فكانت أمثال المنافقين التي ترهب من النفاق ومصيره في الدنيا والآخرة وتحذر المؤمنين منهم ومن تصرفاتهم وتكشف نواياهم بالمؤمنين .

وظهر عداء اليهود للمؤمنين لما لم يجدوا النبي قد ظهر من أولادهم ، وأصروا على عدائه مستغلين الفرص لزعزعة الكيان المؤمن ، وضربه في مقتل حيث حاولوا إثارة الفتنة بين الأوس والخزرج ، وتحريش الكفار المشركين ضد المؤمنين ، وتجلى عداؤهم في مواقف كثيرة منها تعاونهم مع الكفار ضد المؤمنين ، فنزلت الأمثال : ﴿كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ .. ﴾[1] ، وقوله تعالى : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا.. ﴾[2] .

وكذلك النصارى اتخذوا موقف أهل الكتاب الأول ولم يؤمنوا بالنبي - ﷺ - وناصبوه العداء ، فكانت الأمثال التي نزلت في جهادهم وجدالهم : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ .. ﴾[3] ، لما جادلوا في كنهه وحقيقته ، وتعجبوا أن يكون من

(١) الحشر : ١٦.
(٢) الجمعة : ٥.
(٣) آل عمران : ٥٩.

غير أب ، فضرب لهم المثل بآدم الذي وجد دون أب ولا أم .

والمشركون حولهم من كل ناحية ، وأخصهم مشركو مكة الذين كانوا في حرب دائمة مع المؤمنين ، يبغون من ورائها استئصال شأفة المسلمين ، والقضاء على دينهم ودعوتهم ، فكانت لهم أمثالهم التي ترد عليهم ، وتصور مدى ضلالهم وانحرافهم عن الجادة ، وتسخر منهم ومن سوء تفكيرهم وبلادة عقولهم ، وتبلد إحساسهم هم وغيرهم من مشركي الجزيرة ، بل من مشركي العالم إلى اليوم .

ثم يأتي بعد ذلك بناء الجماعة المسلمة ، وإعدادها لحمل أمانة العقيدة في الأرض وتأسيس المجتمع المسلم الذي يحمل راية التوحيد ، والخلافة في الأرض بمنهج الله وشريعته ونشرها بين العالمين ، وإزالة الأخطار من طريقها ، وتوجيهها كلما زلت القدم وادلهمت الأحداث لتوضح المغزى والهدف المراد من التوجيه الرباني ، فكانت أمثلة الإنفاق لحاجة الدولة الوليدة إلى المال ، وأمثال تبين عاقبة سوء استغلال المال كأمثال الربا ، ولما حاول اليهود إشعال نار العداوة كانت الأمثال تنبه وتحذر من ذلك ، وتدعو إلى الاعتصام بحبل الله تعالى ، وأمثال تبين جزاء المتقين في الآخرة من الجنات ، وما فيها من ألوان النعيم ﴿ مثل الجنة التي وعد المتقون .. ﴾ وأمثال توضح هداية الله وأثر من عاش فيها ممن عاش في الظلمات ،وأمثال لنماء المؤمن وبركته حيث رسول الله - ﷺ - والذين آمنوا معه ومثلهم في التوراة والإنجيل قبل أن يولدوا أو يوجدوا على وجه الأرض ، فكانت أمثال القرآن الكريم العلاج الشافي

والبلسم الناجع لأدواء المجتمع المؤمن وجراحاته ، والموجه للأمة المؤمنة كي تأخذ دورها كقائدة ومربية وموجهة إلى الخير والنور الذي حملها الله إياه : ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ .. ﴾[1].

وهكذا كان دور الأمثال ، وكان الغرض من ضربها حتى تؤدى غرضها المقصود في إقامة المجتمع المؤمن وتنميته حتى يؤدي دوره المنشود.

(١) آل عمران - ١١٠.

مفهوم المثل

لغة :

مِثْل : كلمة تسوية . يقال : هذا مِثْله ومَثَله ، كما يقال : شِبْهه ، وشَبَهُه بمعنى ، والمِثْل الشَّبَه . يقال : مِثْل ومَثَل ، وشِبْه وشَبَه بمعنى واحد، وبمعنى النظير ، والمِثْل : موضع ، وفي القاموس ضبط بالضم (مُثْل)[1] .

والمِثْل بالكسر : أعم الألفاظ الموضوعة للمشابهة ، والنظير أخص منه ، وكذا الند ، فإنه يقال لما يشاركه في الجوهر فقط ، وكذا الشبه والمساوي والشكل .

وقد يطلق المثل ويراد به الذات كقولك :ومثلك لا يفعل هذا .أي : أنت لا تفعله .

وعليه : « ليس كمثله شيء » أي كهو ، تقول العبر : مثلي لا يقال له هذا أي : أنا لا يقال لي هذا ، أو المراد فيه نفي التماثل عن المثل ، فلا مثل لله حقيقة ، أو المراد نفي المثل ، وزيادة الحرف بمنزلة إعادة الجملة ثانيا؛ أو الجمع بين الكاف والمثل لتأكيد النفي تنبيها على أنه لا يصح استعمالهما ، فنفي بليس الأمران جميعًا ؛ أو المِثْل بمعنى الصفة ، وفيه تنبيه على أن الصفات له تعالى لا على حسب ما تستعمل في البشر ، ولله المثل الأعلى ، والأكثرون على كون الكاف فيه زائدة ، إذ القصد نفي المِثْل ، واعلم أن المِثْل المطلق للشيء هو ما يساويه في جميع أوصافه، ولم يتجاسر أحد من الخلائق على إثبات المثل المطلق ، بل من

(١) لسان العرب - مثل والمعجم الوسيط مثل .

أثبت له شريكا ، ادعى أنه كالمثل له يعني يساويه في بعض الصفات الإلهية فالآية رد على من زعم التساوي من وجه دون وجه [1].

والمَثَل والمَثيل : كالمِثْل ، والجمع أمثال ،وهما يتماثلان ، والمَثَل : الحديث نفسه ، والمثل الشيء الذي يضرب لشيء مثلاً فيجعل مثله ، وفي الصحاح : ما يضرب به من الأمثال .

قال الجوهري : ومَثَل الشيء أيضا صفته ، ورد على ذلك أبو علي قال : لأن المَثَل الصفة غير معروف في كلام العرب ، إنما معناه التمثيل.

وفي الكليات : المَثَل بفتحتين : اسم لنوع من الكلام ، وهو ما تراضاه العامة والخاصة لتعريف الشيء بغير ما وضع له من اللفظ ، يستعمل في السراء والضراء ، ويستعار لفظ المثل للحال كقوله تعالى : ﴿مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً﴾ أي حالهم العجيبة ، و﴿ مَثَل الجنة التي وعد المتقون ﴾ أي فيما قصصنا عليك من العجائب ، ومن العجائب قصة الجنة العجيبة ، « ولله المثل الأعلى » أي الصفة العجيبة ، وهو أبلغ من الحكمة .

وقد يأتي المكسور (المِثْل) بمعنى (المَثَل) بفتحتين ، أعني الصفة لقوله تعالى: (مثل الجنة) أي صفتها ، وقد يأتي بمعنى النفس ، كما في قوله تعالى : ﴿ فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به ﴾ ويسمى الكلام الدائر في الناس للتمثيل مثلاً لقصدهم إقامة ذلك مقام غيره [1]. والمثل : مأخوذ

(١) الكليات لأبي البقاء الكفوي - ٨٥١.

من المثال والحذو ، والصفة تحلية ونعتٌ ، ويقال :تمثل فلان :ضرب مثلاً ، وتمثل بالشيء ضربه مثلاً ، وقد يكون المثل بمعنى العِبْرة ، ومنه قوله عز وجل : ﴿ فجعلناهم سلفًا ومثلاً للآخرين ﴾ فمعنى السلف أنا جعلناهم متقدمين يتعظ بهم الغابرون ، ومعنى قوله ومثلاً أي عبرة يعتبر بها المتأخرون ، ويكون المثل بمعنى الآية ، قال الله عز وجل في صفة عيسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام : وجعلناه مثلاً لبني إسرائيل أي : آية تدل على نبوته[2] . والمَثَل : لغة في المِثْل للشبه والنظير ، والتمثيل عند أهل البيان يطلق على المجاز المركب وعلى التشبيه [3]، قال المبرد : المثل مأخوذ من المثال ، فقولهم « مثل بين يديه » إذا انتصب واقفًا ،معناه أشبه الصورة المنتصبة ، « وفلان أمثل من فلان » أي أشبه بما له من الفضل ، فحقيقة المثل ما جعل كالعلم للتشبيه بحال الأول ، كقول كعب بن زهير:

كانت مواعيد عرقوب لها مثلاً وما مواعيدها إلا الأباطيل

فمواعيد عرقوب علم لكل ما لا يصح من من المواعيد[4] ، والمَثَل محركة : الحجة والحديث [5]، والمثل الذي يسد مسد غيره ، وقال أبو الفضل الميداني : أربعة أحرف سمع فيها فَعَلٌ وفِعْلٌ وهي : مَثَلٌ

(١) الكليات - ٨٥٢ .
(٢) لسان العرب - مثل .
(٣) محيط المحيط بطرس البستاني - ٧٣٨ .
(٤) مقدمة مجمع الأمثال للميداني - ٥.
(٥) الكليات - ٨٥٢ .

ومِثْلٌ وشَبَه وشِبْه ، وبَدَلٌ وبِدْلٌ ونَكَلٌ ونِكْلٌ، فَمَثَلُ الشيء ومِثْله وشَبَهه وشِبْهه: ما يماثله ويشابهه قدرًا وصفة ، ولشدة امتزاج معنى الصفة صح أن يقال : جعلت زيدًا مثلاً ، والقوم أمثالاً ، ومنه قوله تعالى: ﴿ساء مثلا القوم﴾ جعل القوم أنفسهم مثلاً في أحد القولين [1].

والمثال : المقدار ، وهو من الشَّبْه والمِثْلُ : ما جعل مثالاً ، أي مقدارًا لغيره يحذى عليه ، والجمع المُثُل ، وثلاثة أمثلة ، ومنه أمثلة الأفعال والأسماء في باب التصريف ، والمثال : القالب الذي يُقَدَّر على مثله ، أبو حنيفة : المثالُ قالب يُدْخَلُ عِنَ النصل في خرق في وسطه ، ثم يطرق غراراه حتى ينبسطا ، والجمع أمثلة ، ومائل الشيء شابهه [2].

والمثال من مثل الرجل بين يدي رجل ،ككرم : إذا انتصب قائمًا، أو سقط بين يديه [3].

والمثال : المقدار والقصاص وصفة الشيء .

والتمثال : الصورة ، والجمع التماثيل ، ومثل له الشيء : صوره حتى كأنه ينظر إليه ، وامتثله هو تصوَّره ، والمثال : معروف ، والجمع أمثلة ومُثُلٌ ، ومَثَّلْت له كذا تمثيلاً ، إذا صورت له مثاله بكتابة وغيرها، وفي الحديث : أشد الناس عذابًا ممثل من الممثلين أي مصور ، يقال مثَّلْتُ بالتثقيل والتخفيف إذا صورت مثالاً ، والتمثال الاسم منه ، وظل كل

(١) مقدمة مجمع الأمثال للميداني - ٦.
(٢) لسان العرب - مثل .
(٣) الكليات - ٨٥٢.

شيء تمثاله ، ومَثَّل الشيء بالشيء سواه وشبهه به ، وجعله مِثْلَه وعلى مثاله .

والتمثال : اسم للشيء المصنوع مشبهًا بخلق من خلق الله ، وجمعه التماثيل ، وأصله من مثلت الشيء بالشيء إذا قدرته ، ويكون تمثيل الشيء بالشيء تشبيهًا به ، واسم ذلك الممثَّل : تِمْثال .

والأمثال : أرضون ذات جبال يشبه بعضها بعضًا ، ولذلك سميت أمثالاً ، وهي من البصرة على ليلتين ، ويقال : تمثل كذا عن كذا إذا حضر منتصبًا عنده بنفسه أو بمثاله ، ومَثَّله به : شبهه ، وتَمَثَّل به : تشبه به ، ومُثِّل الشيء بالشيء : سُوِيَ به ، وقدر تقديره ، ومَثَّل التماثيل: صورها ، وتَمَثَّل أنشد بيتًا ثم آخر ، وامتثله هو : تصوره [1].

والطريقة المثلى أي الأشبه بالحق ، وأمثلهم طريقة : أي أعدلهم وأشبههم بأهل الحق، وأعلمهم عند نفسه بما يقوله ، والأمْثل : للتفضيل،و سمى أفاضل الناس أماثل لقيامهم في كل المهمات[2].

ونلاحظ التطور الدلالي في مفهوم المثل في اللغة ، فقد بدأت الألفاظ بداية حسية كما في الأمثال ، وهي الأرض ذات الجبال يشبه بعضها بعضا ، ثم تطور المعنى الحسي إلى حسي منقول عن الأصل المادي ، كما في التمثال المصنوع مشبهًا بخلق الله تعالى ، وأصله من

(١) لسان العرب ، القاموس المحيط ، أساس البلاغة للزمخشري ٨٨٠ ، الكليات -٨٥٢.
(٢) الكليات -٨٥٢.

مثلت الشيء بالشيء إذا قدرته على قدره ، ومثل له الشيء صوره حتى كأنه ينظر إليه ، ثم انتقلت من هذا المعنى الحسي إلى أمر معنوي ، وهو تمثيل الشيء بالشيء تشبيها به ، يقال هذا مِثْله ومَثَله ، كما يقال شِبْهه وشَبَهه بمعنى واحد ، وماثل الشيء شابهه .

وإن كان لا يوجد عندنا معجم تاريخي للغتنا يحدد تاريخ الألفاظ وأطوار استخدامها ، وتدرج استعمالها إلا أن هذا الانتقال من الحسيات إلى المعنويات سمة عامة في اللغة ، ومنها هذا الذي نحن بصدده ، كما وضحنا .

اصطلاحًا :

له تعريفات متعددة : منها :

١ - المثل السائر : قول محكي يقصد به تشبيه حال الذي حكى فيه بحال الذي قيل لأجله أو تشبيه مضربه بمورده [١] ، قال المبرد : وهو قول سائر يشبه به حال الثاني بالأول ، والأصل فيه التشبيه مثل : « رب رمية من غير رام » وأول من قاله الحكم بن يغوث النقري ، يضرب للمخطئ بصيب أحيانًا ، ويقول ابن رشيق : المثل السائر في كلام العرب كثير نظمًا ونثرًا وأفضله أوجزه ، وأحكمه أصدقه ، وقولهم : « مثل شرود وشارد » أي سائر لا يرد كالجمل الصعب الشارد الذي لا يكاد يعرض له ولا يرد [٢] .

(١) الوسيط في الأدب العربي للإسكندري وعناني -١٦.
(٢) العمدة لابن رشيق ١/ ٢٨٠ ، ٢٨١ ، مقدمة مجمع الأمثال -٥، ٦.

٢- المثل القياسي : المجاز المركب الذي تكون علاقته المشابهة متى فشا استعماله ، وأصله الاستعارة التمثيلية كقولك للمتردد في فعل أمر : « مالي أراك تقدم رجلاً وتؤخر أخرى [١] ، أو لتشبيه معقول بمحسوس أكثر وضوحًا [٢] .

٣- المثل الأصيل : « هو عبارة لها ماض تنمو من صميم البيئة ، وتنبع من موارد القومية واستحسان الشعب لها هو الذي يمنحها ذلك التأثير العميق حتى ولو كانت تتضمن معاني زائفة أو مبادئ غير صحيحة [٣] .

٤- المثل (PORABLE) : قصة قصيرة بسيطة رمزية غالبًا ما تدل على مغزى أخلاقي (ومن أشهر أمثلتها أمثال السيد المسيح الواردة في الأناجيل الأربعة ويلاحظ أن المصطلح الإنجليزي لا ينطبق في أغلب الأحيان إلا على أمثال السيد المسيح [٤] .

٥- المثل الحكمة (PROVERB) عبارة موجزة يتداولها الناس تتضمن فكرة حكمية في مجال الحياة البشرية وتقلباتها ، وتصاغ عادة بأسلوب مجازي يستميل الخيال ، ويسهل حفظه مثال ذلك : «المورد العذب كثير الزحام » ، وقول المتنبي : (٣٥٤هـ) :

(١) علوم القرآن والتفسير د/ عبد الله شحاته - ٢١٢.
(٢) جمهرة الأمثال على حاشية مجمع الأمثال - ١٩.
(٣) الأمثال في النثر العربي القديم د/ عبد المجيد عابدين - ٨٥ .
(٤) معجم المصطلحات في اللغة والأدب - ٣٣٢.

٦- المثل المتداول السائر : (ADAGE) حكمة كثيرة الذيوع من قديم تتضمن ملاحظة عامة وغالبًا ما تكون في أسلوب مجازي وذلك كالمثل : « المورد العذب كثير الزحام »[2].

وأبو هلال العسكري يقول : « كل حكمة سائرة تسمى مثلاً »، وقد يأتي القائل بما يحسن من الكلام أن يتمثل به إلا أنه لا يتفق أن يسير فلا يكون مثلاً[3].

فيتفقان في جعل المثل حكمة مع الفوارق بينهما ، إلا أن الحكمة إذا ذاعت صارت مثلاً .

٧- المثل المسرح (PROVERBE -DRAMATIQUE) : هو نوع من الملهاة الصغيرة ،الغرض منها تطبيق ما يتضمنه من مثل أو حكمة ، وقد ظهر هذا النوع بفرنسا في القرن السابع عشر حيث كانت الملهاة تمثل من غير عنوان ، ويترك للجمهور استنتاج المثل من خلال التمثيل ، وفي القرن التاسع عشر ألف الشاعر الفرنسي (ألفريد دي موسيه - ١٨١٠-١٨٥٧م) بعض المسرحيات التي تصور تطبيق مثل معروف تطبيقا فكاهيًا فيه ذكاء ... وتتميز هذه المسرحيات بالحوار الأنيق الذكي الذي تكمن فيه عاطفة قوية من غير أن يعبر عنها تعبيرًا صريحًا[4].

(١)معجم المصطلحات في اللغة والأدب - ٣٣٢.
(٢) المصدر السابق .
(٣) جمهرة الأمثال على حاشية مجمع الأمثال - ١-٥.
(٤) معجم المصطلحات في اللغة والأدب - ٣٣٢.

وهذا المثل يميل إلى التمثيل أكثر من كونه منطوقًا ، فبعد اكتماله ونضجه وشهرته كمثل ، يمثل على المسرح باعتباره فكرة أو حكمة قيمة تستحق التوصيل إلى الآخرين .

٨- حكاية في غاية الإيجاز تروى على لسان حيوان أو جماد يكون لها مغزى اصطلاحي أو خلقي كما في (كليلة ودمنة) لابن المقفع ، وفي (الصادح والباغم) لابن الهبارية ، وأمثال الشاعر الفرنسي لافونتين[1] ، وهذا من باب المواعظ على ألسنة الحيوان ، أو المثل الخرافي.

٩- ابن السكّيت : المثل لفظ يخالف لفظ المضروب له ،و يوافق معناه معنى ذلك اللفظ شبهوه بالمثال الذي يعمل عليه غيره[2].

١٠- الأمثال هى الحكم القائم صدقها في العقول أمثالاً لانتصاب صورها في العقول مشتقة من المثول الذي هو الانتصاب[3].

١١- وقال المرزوقي في شرح الفصيح :« المثل جملة من القول مقتضبة من أصلها ، أو مرسلة بذاتها ، فتتسم بالقبول ، وتشتهر بالتداول ، فتنقل عما وردت فيه إلى كل ما يصح قصده بها من غير تغيير يلحقها في لفظها وعما يوحيه الظاهر إلى أشباهه من المعاني فلذلك تضرب ، وإن جهلت أسبابها التي خرجت عليها ، واستجيز الحذف ، ومضارع

(١) المعجم الأدبي جبور عبد النور - ٢٣٦، المعجم الوسيط - مثل .
(٢) مقدمة مجمع الأمثال - ٥، ٦.
(٣) المصدر السابق .

المعاني التي ذكرناها ، دون أن يكون لها مضرب ومورد ، ولم تقتصر على القياسي ؛ بل جاءت واضحة كأنها تمثل أمام المشاهد رأى العين ، وكانت قصة قصيرة . وكانت عظة تستخلص من خلال السباق والمغزى كما يظهر من خلال التعاريف التالية لأمثال القرآن :

أمثال القرآن الكريم

١- تشبيه شيء بشيء في حكمه ، وتقريب المعقول من المحسوس أو أحد المحسوسين من الآخر واعتبار أحدهما شبيهًا بالآخر ويسوق الأمثلة على ذلك فتجدها على طريقة :

أ- التشبيه الصريح ب- التشبيه الضمني .

جـ- مالم يشتمل على تشبيه أو استعارة [١].

٢- يطلق المثل على الحال والقصة العجيبة الشأن ، وبهذا المعنى فسر لفظ المثل في كثير من الآيات كقوله تعالى : ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ ﴾[٢] أي قصتها وصفتها التي يتعجب منها.

٣- إبراز المعنى في صوة حسية تكسبه روعة وجمالاً ، والمثل بهذا المعنى لا يشترط أن يكون له مورد ، كما لا يشترط أن يكون مجازاً مركبًا[٢]، ثم يعلق على هذا فيقول : وإذا نظرنا إلى أمثال القرآن التي

(١) الأمثال في القرآن الكريم لابن القيم - ١٧٣ -ومابعدها .
(٢) محمد -١٥ ، الكشاف -١ ١٩٦ .
(٣)علوم القرآن والتفسير د/ عبد الله شحاته - ٢١٢ وما بعدها .

يذكرها المؤلفون وجدنا أنهم يوردون الآية المشتملة على تمثيل حال أمر بحال أمر آخر سواء أورد هذا التمثيل بطريق الاستعارة ، أم بطريق التشبيه الصريح ، أو الآيات الدالة على معنى رائع بإيجاز ، أو التي يصح استعمالها فيما يشبه ما وردت فيه ؛ فإن الله تعالى ابتدأها دون أن يكون لها مورد من قبل .

فأمثال القرآن الكريم لا يستقيم حملها على أصل المعنى اللغوي الذي هو الشبيه والنظير ، ولا يستقيم حملها علي ما يذكر في كتب اللغة لدى من ألفوا في الأمثال ؛ إذ ليست أمثال القرآن أقوالاً استعملت على وجه تشبيه مضربها بموردها ، ولا يستقيم حملها على معنى الأمثال عند علماء البيان ، فمن أمثال القرآن ما ليس استعارة ، ولم يفش استعماله[١].

وبنحو منه من يقول : وإذا نظرنا إلى أمثال القرآن الكريم التي يذكرها المؤلفون وجدنا أنهم يوردون الآيات المشتملة على تمثيل حال أمر بحال أمر آخر سواء أورد هذا التمثيل بطريق الاستعارة أم التشبيه ، أم الآيات الدالة على معنى رائع بإيجاز ، أو التي يصح استعمالها فيما يشبه ما وردت فيه فإن الله ابتدأها دون أن يكون مورد من قبل[٢].

إذن دراسة الأمثال على مفهوم المثل في الأدب ستكون قاصرة ، أو على أنها القصة العجيبة الشأن ، أو على أنها المجاز المركب متى فشا

(١)علوم القرآن والتفسير د/ عبد الله شحاته - ٢١٢ وما بعدها .
(٢) مباحث في علوم القرآن / مناع القطان - ٢٨٣ وما بعدها .

استعماله ، أو قول محكي يشبه مضربه بمورده ، فأي تعريف من هذه يعتبر قاصراً بالنسبة لأمثال القرآن ، ولابد من توسيع الدائرة لتشمل كل ذلك وغيره ، مما يدخل تحته كل أمثال القرآن الكريم ، ويكون تعريفًا جامعًا مانعًا .

فنرى أن تعريف المثل القرآني يكون : « تصوير المعنى تصويرًا حسيًا أو مشخصًا بقربه من الإدراك في روعة وجمال .

فيكون التصوير حسيًا لتجسيم المعقولات ، أو مشخصا يمنحها الحركة و التعقل والحوار والصوت والألوان المختلفة المعبرة عن مضمون الصورة تقريبا لإدراك المتلقي لها في انبهار وجلال .

ضرب الأمثال

لقد ضرب الله الأمثال في كتابه الكريم في مواضع متعددة للناس ليتذكروا ويدبروا : ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ (١)، فنوع الله الأمثال للناس لتقوم عليهم الحجة بالوضوح والبيان ، كما قامت بالتبليغ والإعذار والإنذار ، وجاءت على ألسنة رسله معوانًا للبيان والإيضاح والكشف عن خبيئات المعاني وتقريبها للأذهان كأنها مشاهد مرئية على لسان إبراهيم عليه السلام ، فقد كانت صحفه كلها عبرا ، وسليمان وعيسى بن مريم ومحمد عليهم جميعًا

(١)الزمر - ٢٧.

صلوات الله وسلامه ، وهناك كتب ألفت في أمثال الحديث النبوي .

كما كان وما زال ضرب المثل في كافة اللغات ، وكل الأديان على ألسنة البلغاء والحكماء والعقلاء في كل أمة من الأمم طريقًا للكشف والإيضاح والبيان « والمثل ليس حديثًا في أشكاله المتنوعة ، بل هو عريق في القدم ، قد رافق الإنسان منذ نشوء الثقافات وازدهارها عبر العصور، رغم كل التفاعلات الثقافية والصراعات الفكرية التي أدت إلى تعدد في الفنون ، وتنوع في الأساليب تكاد لا تحصى ، إلا أنها كانت تلتقي دومًا علي عدد من القيم والمثل التي تهدف إلى تربية الإنسان ، وصقل مواهبه وإنارة طرقه ، بما يؤمن له حياة أفضل ، بعيدًا عن المادية والضغوطات النفسية ، وما أكثر ما واجه منها الإنسان ويواجه ، ولاسيما في المجتمعات الحديثة التي تثقلها الأعباء والهموم ، وتنوء تحتها جهود الإنسان العامل الدؤوب » (١).

معنى ضرب الأمثال

الضرب ورد بمعان متعددة منها :

قول الراغب الأصفهاني : ضرب المثل هو ضرب الدراهم ، ثم هو

(١) الأمثال والمِثل والتمثل والمثلات في القرآن الكريم / عاطف الزين - ٢٦.

يحدث في النفس أثرًا قويًا كالضرب [1]، وقد يكون مشتقًا من قولهم: ضرب في الأرض إذا سار فيها، فمعناه ينتشر ويذيع في البلاد [2]، وقد يكون الضرب باليد كقوله تعالى: « فَضَرْبَ الرِّقَابِ » [3].

وبمعنى التبيين والوصف: ﴿ فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الأَمْثَالَ ﴾[4] أي لا تصفوه بصفات غيره ولا تشبهوه [5].

وقد يكون الضرب بمعنى النصب والإشهار لتستدل عليه خواطرهم، كما تستدل عيونهم على الأشياء المنصوبة واشتقاقه حينئذ من قولهم: « ضربت الخباء »إذا نصبته، وأثبت طنبه، وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ﴾[6]. أي ينصب منارهما، ويوضح أعلامهما ليعرف المكلفون الحق بعلاماته فيقصدوه، ويعرفوا الباطل فيجتنبوه »[7].

وقد يكون بمعنى الصنع والإنشاء فيكون مشتقًا من ضرب اللبن، وضرب الخاتم.

وقد يكون من الضرب بمعنى إيقاء شيء على شيء، ومنه ضرب

(١) مفردات غريب القرآن -٤٦٢- دار المعرفة بيروت لبنان.
(٢) مقدمة جمهرة الأمثال للعسكري.
(٣) محمد - ٤.
(٤) النحل - ٧٤.
(٥) تأويل مشكل القران لابن قتيبة - ٤٩٦-٤٩٧.
(٦) الرعد - ١٧.
(٧) تلخيص البيان في مجازات القرآن للشريف الرضي - ١٠٧.

الدراهم أي إيقاع النموذج الذي به الصك على الدراهم لتنطبع به، فكأن المثل مطابق للحال أي الصفة التي جاء لإيضاحها [1].

ويقول أبو السعود: « وضرب المثل استعماله في مضربه، وتطبيقه به لا صنعه وإنشاؤه في نفسه، وإلا لكان إنشاء الأمثال السائرة في مواردها ضربًا لها دون استعمالها بعد ذلك في مضاربها لفقدان الإنشاء هناك.

والأمثال الوادرة في التنزيل وإن كان استعمالها في مضاربها عين إنشائها في أنفسها، ولكن التعبير عنه بالضرب ليس بهذا الاعتبار، بل بالاعتبار الأول قطعا، وهو مأخوذ إما من ضرب الخاتم بجامع التطبيق، فكما أن ضربه بعد تطبيقه كذلك استعمال الأمثال في أنها تنشأ بحسبها بعد أن لم تكن كذلك، بل بمعنى أنها تورد منطبقة عليها سواء كان إنشاؤها حينئذ كعامة الأمثال التنزيلية، فإن مضاربها قوالبها، أو قبل ذلك كسائر الأمثال، فإنها وإن كانت مصنوعة من قبل إلا أن تطبيقها أي إيرادها منطبقة على مضاربها إنما يحصل عند الضرب.

وإما من ضرب الطين على الجدار ليتزق به بجامع الإلصاق، كأن من يستعملها يلصقها بمضاربها، ويجعل ضرب لازب لا تنفك عنه لشدة تعلقها بها [2].

والمراد بالضرب: الذكر والبيان والصنع، إلا أن الضرب مشير إلى

(١) الأمثال في القرآن الكريم لابن القيم - ٢٠، ٢١.
(٢) تفسير أبو السعود - ١/ ٥٨.

قوة البيان والتصوير وإصابه المحز ، كأنه يعتمل ويصنع خصيصًا [1].

فقد جاء الضرب بمعنى : ضرب الدراهم ، وبمعنى الضرب في الأرض ، وبمعنى التبين والوصف وقد يكون بمعنى النصب والإشهار ، وقد يكون بمعنى الصنع والإنشاء ، وقد يكون بمعنى إيقاء شيء على شيء ، أو بمعنى استعماله في مضربه وتطبيقه به ، أو من ضرب الطين على الجدار ، وقد يكون بمعنى : الذكر والبيان والصنع .

هذه معظم المعاني التي وردت في أقوال السابقين ، وهي تشير إلى أمرين :

أ- الضرب الحسي بمعنى ضرب الدراهم وسك العملة ، والصنع والإنشاء أو ضرب الطين على الجدار .

ب- الضرب المعنوي التبين والوصف ، أو النصب والإشهار ، أو استعماله في مضربه وذكره للبيان والتوضيح .

وبين الحسي والمعنوي تدور معاني اللغة ، كما هو معروف ؛ فالمعاني تبدأ حسية ، ثم تنمو وتتدرج إلى المعنوية ، فهناك ضرب حسي ضرب الدراهم وصنعها لتنتشر وتذيع بين الناس في التعامل ، وضرب الطين على الجدار ليظهر كذلك للناس ، ثم تدرج ونما إلى المعنوي بمعنى التبين والوصف والذكر والنصب والإشهار ، واستعماله في مضربه نظراً لكونه شاع وانتشر بين الناس .

(١) النهج القويم في دراسة علوم القرآن الكريم د/ عبد الغني الرجحي - ٥٦.

لماذا اختير لفظ الضرب ؟

لأن فيه قرع للآذان وللنفوس والقلوب لإيقاظ الغافلين ، « واختير لفظ الضرب لأنه يأتي عند إرادة التأثير وهيج الانفعال ، كأن ضارب المثل يقرع به أذن السامع قرعًا ينفذ إلى قلبه وينتهي إلى أعماق نفسه»[1].

لماذا ضرب الأمثال ؟

ضرب القرآن الكريم الأمثال للناس توضيحًا وتذكيراً للعظة والاعتبار ، واهتم بها اهتمامًا جعلها تأخذ حيزًا كبيرًا ، « وهو الشاهد الأول على عناية الدعوة الإسلامية بالمثل الكتابي ، فهو يؤيد في مواقف الاعتزاز في بضعة عشر موضعًا أنه بضرب الأمثال للناس بيانًا وتذكيراً ، فلا تستوي أمثاله تعالى وأمثال الكفار ، فأمثال الكفار ضلال وبهتان مشيراً إلى قوله تعالى : ﴿ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾[2]. وقوله تعالى : ﴿ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾[3].

فأمثال الكفار ضلال لسوء اعتقادهم وفساد تصرفهم ، أما أمثال القرآن - ولله المثل الأعلى - فهي الهداية والنور ، من عقلها واتعظ بها استفاد منها أي استفادة ، وسعد بها أيما سعادة في الدنيا والآخرة ،

(١) موجز البيان في مباحث القرآن للشيخ كمال الدين الطائي - ١٢١/ ١٢٢.
(٢) الإسراء - ٤٨.
(٣) الروم - ٢٧(الأمثال في النثر العربي القديم د/ عبد المجيد عابدين - ١٢٧ وما بعدها .

ولذلك « ضرب الله للناس وأودع كتابه من ضروب الحكم ما اطمأنت له القلوب ، وأذعنت لمنطقه العقول ، وكان من الأقوال السائدة والقضايا الصادقة التي يتمثل بها ويخضعون لحكمها ، إذا ما حزبهم أمر ، واشتبه عليهم رأي ، أو اشتجر بينهم خلاف »[1].

والقرآن ملئ بصور من الأمثال أفحمت المكابرين ، وألجمت المعاندين ، وهدهدت الصالحين ، وطمأنت المتقين إلى الحق الواضح والسبيل القاسط ترغيبًا وترهيبًا فلم يملكوا إزاءها إلا الخضوع والانقياد ، والإقرار بالحق الذي لا محيص عنه ، ومن هنا أكثر القرآن من ضرب الأمثال ، فقد ذكرت مادة المثل في القرآن الكريم حوالي ١٨٠ مرة مائة وثمانون مرة ما بين مثل وغيره ، وهذا إن دل فإنما يدل على عناية القرآن الكريم بأمر المثل .

شرف الأمثال

وهي من أشرف وأرقى ألوان الكلام يرصع بها البليغ خطابه ، ويعلي بها صوابه ، ويصل بها إلى مبتغاه ومنتهاه في جمال وكمال ، و«اعلم أن الأمثال من أشرف ما وصل به اللبيب خطابه ، وحلى بجواهره كتابه ، وقد نطق كتاب الله وهو أشرف الكتب المنزلة بكثير منها .. »[2].

(١) التمثيل في القرآن الكريم خليل محمد خليل - ١٠.
(٢) المستطرف في كل من مستظرف لشهاب الدين الأبشيهي - ١/ ٢٥.

ويقول أبو عبيد : « الأمثال حكمة العرب في الجاهلية والإسلام ، وبها كانت تعارض كلامها ، فتبلغ بها ما حاولت من حاجاتها في المنطق بكناية غير تصريح ، فيجتمع لها بذلك ثلاث خلال : إيجاز اللفظ ، وإصابة المعنى ، وحسن التشبيه ، وقد ضربها النبي - ﷺ - وتمثل هو ومن بعده من السلف »[1]. وكانت علمًا عظيمًا من أشرف علوم القرآن يقول الماوردي : « من أعظم علم القرآن علم أمثاله ، والناس في غفلة عنها لاشتغالهم بالأمثال وإغفالهم الممثلات ، والمثل بلا ممثل كالفرس بلا لجام ، والناقة بلا زمام »[2]، والإمام الشافعي - رضي الله عنه - بعد أن عد هذا العلم مما يجب على المجتهد معرفته من علوم القرآن يقول : « ثم معرفة ما ضرب فيه من الأمثال الدوال على طاعته المبينة لاجتناب معصيته ، وترك الغفلة عن الحفظ والازدياد من نوافل الفضل[3] ، فكما أنها ضرورية للمجتهد والمفسر فإنها من أشرف ألوان الكلام » وكفاها جلالة قدر وفخامة أن كتاب الله عز وجل ، وهو أشرف الكتب التي أنزلت على العرب والعجم لم يَعْرَ من وشاحها المفضل ترائب طواله ومفصله ، وإن كلام نبيه محمد - ﷺ - وهو أفصح العرب لسانًا وأكملهم بيانًا وأرجحهم في إيضاح القول ميزانًا ، لم يخل في إصداره وإيراده ، وتبشيره وإنذاره من مثل يحوز قصب السبق في حلبة الإيجاز ، ويستولي أمد الحسن في صنعة الإعجاز »[4].

(١) المزهر للسيوطي - ١/ ٤٨٦.
(٢) الإتقان في علوم القرآن - ٢/ ١٣١.
(٣) السابق والبرهان - ١ / ٤٨٦ ، معترك الأقران - ١ ٤٦٤.
(٤) مقدمة مجمع الأمثال للميداني - ١/ ١/ ٢ تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد .

الأمثال شعر أم نثر ؟

دارسوا الأدب العربي منذ العصر الجاهلي يصنفونها تحت النثر على أنها لون من ألوانه ، وقد يصوغها بعض الشعراء في ثنايا شعرهم ، وهذا دليل على نثريتها ، وعلى هذا انعقد إجماع الباحثين والأدباء ؛ ولكن هناك من يرى أن الأمثال ليست شعرًا ولا نثرًا !! فماذا تكون ؟ يقول : « وقد لا نستطيع الاعتراف بأن الأمثال فنن من أفنان الشعر ، أو غصن من أغصان النثر لأنها في حقيقتها برزخ بين البحرين وجسر بين الشاطئين ، وثمار مقتطفة من جنى هذا أو ذاك ، ويسترسل فيقول : «وإذا كان بعض الكاتبين والمؤلفين يحلو لهم ذكر الأمثال في إطار الحديث عن النثر ، فنحن نخالفهم في هذا كل المخالفة ، لأن المثل في الواقع قطعة صغيرة من عبارة نثرية أو شعرية ، ولكنها خرجت عن حيز الشعر والنثر إلى حدود الرمزية التي دوت في الآذان ، ثم استقرت في الأذهان، حيث تألقت في سماء الفن الأدبي ، واكتسبت صبغًا خاصًا منحها الاستواء على سوق الأدب الرفيع ، ولولا اهتزاز النفوس لها وتحرك العواطف بها وتأثر المشاعر عندها ، لما احتلت ذلك السجل التاريخي ، ولما نعمت بذلك الحفاظ المرير »[1].ولكنه بذلك - رحمه الله - يخالف إجماعًا بلا دليل ، ولا يتفق رأيه وطبائع الأشياء ، فإنه إذا لم يكن شعرًا لانعدام الوزن والقافية فماذا يكون ؟ هل هناك جنس ثالث ؟ فلا شك أنه نثر بليغ وصل إلى مرحلة عالية من التركيز والإيجاز والجمال والكمال في شتى عصور الأدب .

(١) قطوف من ثمار الأدب في الجاهلية وصدر الإسلام د/ عبد السلام سرحان - ٣٣٦ .

الأمثال لا تغير

« والأمثال مقادير الأفعال ، والمتمثل كالصانع الذي يقدر صناعته ، كالخياط يقدر الثوب على قامة المخيط ، ثم يفريه ، ثم يقطع ، كل شيء له قالب ومقدار ، وقالب الكلام ومقداره الأمثال »[1] .ولما كانت بهذا الإحكام في الصنعة والدقة في الصياغة استحقت أن لا تغير ، يقول الدكتور / عبد السلام سرحان : « ولهذا حظيت الأمثال بقدر من تقديس العبارة ، وفازت بتقرير « أن الأمثال لا تغير »[2]، ووافق على هذا أدباء العربية ونقادها في كافة العصور[3] ، وقال التبريزي في تهذيبه: « تقول الصيفَ ضيعتِ اللبن » مكسورة التاء ، إذا خوطب بها المذكر والمؤنث ، والاثنان والجمع ؛ لأن أصل المثل خوطبت به امرأة ، وكذلك قولهم : « أطرى فإنك ناعلة » الإطرار أن تركب طرر الطريق ، وهي نواحيه ، وقال أبو عبيد : اركب الأمر الشديد فإنك تقوى عليه ، يضرب للمذكر والمؤنث والاثنين والجمع لفظ التأنيث »[4]، وأكد هذا الدكتور شوقي ضيف حيث يقول : « ومعروف أن المثل لا يتغير ، بل يجري على

(١) البرهان ١/ ٤٨٦ ،٤٨٧.
(٢) قطوف من ثمار الأدب - ٣٣٤.
(٣) انظر : مجمع الزمثال للميداني ١/ ٤٣ ، ٢/ ١٩ ، ٦٨ العقد الفريد ٣/ ٤٢ . المزهر للسيوطي - ١/ ٤٨٧ المثل المقارن د/ حقي - ١٥ ، التعبير الفني في القرآن الكريم د/ بكري شيخ أمين - ٢٢٧ ، الأمثال في القرآن الكريم محمد متولي الشعراوي - ٢٠ ، الحكم والأمثال للأدباء العرب - ٨، النهج القويم في دراسة علوم القرآن الكريم د/ عبد الغني الراجحي - ٦٥ وغير ذلك من الكتب التي عنيت بالأمثال .
(٤) المزهر للسيوطي -١ / ٤٨٧، ٤٨٨ .

الألسنة ، وإن خالف النحو ، وقواعد التصريف ، فقد جاء في أمثالهم : « أعط القوس باريها » بتسكين الراء في باريها ، والأصل فتحهما ، «أجناؤها أبناؤها» جمع جانٍ وبانٍ ، والقياس الصرفي جناتها بناتها ؛ لأن فاعلاً لا يجمع على أفعال ، ثم يقول : ومعنى ذلك أن المثل لا يغير ، وأنهم يستجيزون فيه ما لا يستجيزون في سائر الكلام »[1].

شروط المثل

وقد اشترط النقاد والمؤلفون العرب شروطًا لجودة المثل ، حتى يكون له تأثير في القلوب ، وقبول في الأسماع ، وانشراح في الصدور منها : أن يكون على وفق الممثل له من الجهة التي تعلق بها التمثيل له في العظم والصغر والخسة والشرف ، وإن كان الممثل أعظم من كل عظيم ، كما مثل في الإنجيل غل الصدر بالنخالة ، والقلوب القاسية بالحصاة ومخاطبة السفهاء بإثارة الزنابير ، وفي كلام العرب : أسمع من قراد ، وأطيش من فراشة ، وأعز من مخ البعوض ونحو ذلك[2]. فمراعاة وجه الشبه بين المثل والممثل له سلبًا وإيجابًا هي مناط قبول المثل ، واشترطا آخرون شروطًا منها :

١- صحة التشبيه .

٢- أن يكون العلم بها سابقًا والكل عليها موافقًا .

---

(١) الفن ومذاهبه في النثر العربي - ٢١.
(٢) الكليات للكفوي - ٨٥٢ ، والحكم والأمثال - ٨.

٣- أن يسرع وصولها للفهم ، ويعجل تصورها في الوهم من غير ارتياء في استخراجها ولا كد في استنباط .

٤- أن تناسب حال السامع لتكون أبلغ تأثيرًا وأحسن موقعًا .

فإذا اجتمعت في الأمثال المضروبة هذه الشروط ... كانت زينة للكلام ، وجلاء للمعاني وتدبرًا للأفهام[1]، ويقول إبراهيم النظام إمام المعتزلة : « يجتمع في المثل أربعة لا تجتمع في غيره من الكلام : إيجاز اللفظ ، وإصابة المعنى ، وحسن التشبيه ، وجودة الكناية ، فهو نهاية البلاغة »[2].

فهل يرى المثل في القرآن الكريم يخضع لهذه الشروط ، أم أن هناك شروطًا أخرى للمثل القرآني ؟ يرى بعض الباحثين أن المثل القراني لا يخضع لهذه الشروط لأن أمثلة القرآن أنواع منها : المصرحة ، والكامنة ، والمرسلة[3]، ولأنها في القرآن الكريم كسائر كلام الله تعالى في درجة الإعجاز البلاغي الذي لا يخضع لأي قواعد أو مقاييس مثلما يخضع كلام الناس .

آداب المثل

وللمثل آداب إذا التزمها الممثل كان مثله غاية في الروعة والأناقة والإتقان ، وكما هو معلوم ، فلكل مقام مقال ، والأمثال كما قال الله

---

(١) أدب الدنيا والدين للماوردي - ٢٥٨ ، ٢٥٩.
(٢) مجمع الأمثال للميداني ١/ ٧، ٨ تحقيق أبي الفضل إبراهيم .
(٣) علوم القرآن والتفسير د/ عبد الله شحاته - ٢٢٤.

تعالى : « وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ »[1]. فإذا كان الذين يعقلونها هم العالمون ، فالواجب أن تراعي حيثيات ذلك الخطاب بما يليق به حتى لا يجرح مشاعر المخاطبين ، ويذهب بروعة وجمال المثل ، لأن أي تنغيص للسامع يذهب بجمال القول وبهائه .

يقول أبو الحسن الماوردي : « ومن آدابه أن يجتنب أمثال العامة الغوغاء ، ويتخصص بأمثال العلماء والأدباء ، فإن لكل صنف من الناس أمثالاً تشاكلهم ، فلا تجد لساقط إلا مثلاً ساقطًا وتشبيها مستقبحًا ، وللساقط أمثال ، فمنها تمثيلهم للشيء المريب ، كما قال الصنوبري :

إذا ما كنت ذا بول صحيح ... ألا فاضرب به وجه الطبيب

ولذلك علتان : إحداهما أن الأمثال من هواجس الهمم ، وخطرات النفوس ، ولم يكن لذي الهمة الساقطة إلا مثل مرذول وتشبيه معلول .

الثانية : أن الأمثال مستخرجة من أحوال المتمثلين بها ، فبحسب ماهم عليه تكون أمثالهم فلهاتين العلتين وقع الفرق بين أمثال الخاصة ، وأمثال العامة »[2].

ومن هنا نجد أن القرآن الكريم قد سما بأمثاله إلى أسمى غاية ممكنة وغير ممكنة مما هو من سمات الإعجاز القرآني ، بحيث لا يوجد بها أدنى

---

(١) العنكبوت - ٤٣.
(٢) أدب الدنيا والدين للماوردي - ٢٥٨ - بتصرف .

طعن لطاعن ، وكانت قمة سامقة من قمم التصوير القرآني ، وكانت إحدى دلائل بلاغته وإعجازه .

الدراسات السابقة في الأمثال القرآنية

ولمكانة الأمثال وأهميتها اهتم العلماء بالتأليف فيها قديمًا وحديثًا حيث جمعوها ورتبوها وشرحوا غريبها ، وبينوا القصص التي صدرت عنها ، والمناسبات التي تضرب فيها وتحكي ، وأقاموا حولها دراسات متعددة ، وممن اهتموا بالتأليف في الأمثال القرآنية :

١- أمثال القرآن للجنيد بن محمد القواريري المتوفى سنة ٢٩٨هـ.

٢- أمثال القرآن لنفطويه المتوفي سنة ٣٢٣ سنة ٢٩٨هـ.

٣- أمثال القرآن للإمام أبي الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي الشافعي (٣٦٤- ٤٥٠هـ)[1].

٥- أمثال القرآن الكريم للإمام شمس الدين محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية المتوفى سنة ٧٥٤ هـ والفوائد المشوقة إلى علوم القرآن الكريم (فصل التمثيل) .

٦- فصل الأمثال في الإتقان في علوم القرآن للسيوطي[2]، وكذلك البرهان في علوم القرآن للزركشي .

---

(١) الإتقان في علوم القرآن .
(٢) المصدر السابق - ٢/ ١٦٧.

٧- كتاب الأمثال لابن أبي الأصبع المصري [1].

٨- الأمثال من الكتاب والسنة للحكيم الترمذي تحقيق الأستاذ علي محمد البجاوي طبع ١٩٧٥ م .

٩- أمثال القرآن تحقيق د/ ناصر بن سعد الرشيد ، دار مكة .

١٠-الأمثال الكامنة في القرآن والسنة للحسن بن الفضل .

١١- رسالة ماجستير في « أمثال القرآن وأثرها في الأدب العربي إلى القرن الثالث الهجري لنور الحق تنوير ، مخطوط بمكتبة كلية دار العلوم، مكتبة جامعة القاهرة .

١٢- الأمثال في النثر العربي القديم مع مقارنتها بنظائرها في الآداب السامية الأخرى د/ عبد المجيد عابدين .

١٣- أمثال القرآن لمحمود بن الشريف طبع دار المعارف بمصر سلسلة إقرأ - طبع عدة طبعات .

١٤- الأمثال القرآنية لعبد الرحمن بن حنبكه الميداني - دار العلم - دمشق - بيروت .

١٥- التمثيل في القرآن أ/ خليل محمد خليل المجلس الأعلى للشئون الإسلامية العدد - ١٨٣ - ١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م (كتب إسلامية).

---

(١) انظر تحرير التحبير تحقيق د/ حفني محمد شرف - ١/ ٥١ ، وبديع القرآن المجيد لابن ابي الأصبع تحقيق د/ حفني شرف - ٨٨.

١٦- أمثال القرآن للأستاذ / محمد عادل شريف طبع السعودية .

١٧- الأمثال في القرآن / محمد متولي الشعراوي وكتابه معجزة القرآن جـ٦ - ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م العدد - ٢٢٩.

١٨- الحكمة والمثل عبد الله السقا اللوزي - كلية اللغة العربية - القاهرة - رسالة جامعية .

١٩- التشبيه والتمثيل أحمد عبد المجيد الماحي - كلية اللغة العربية بالقاهرة .

٢٠- الأمثال في القرآن الكريم والسنة وأثرهما في الدعوة د/ علي يوسف السبكي - كلية أصول الدين بالقاهرة .

٢١- موسوعة الأمثال القرآنية د/ محمد عبد الوهاب عبد اللطيف (رسالة دكتوراه) مكتبة الآداب القاهرة ١٤١٤هـ- ١٩٩٣م .

٢٢- المثل في القرآن - منير القاضي - بغداد .

غير الدراسات المتفرقة في كتب التفسير والبلاغة والأدب والنقد وغيرهما .

أهمية الأمثال

الأمثال بيان للغامض ، وتوضيح له ، فإن كان الغموض للبعد فإنها تقربه ، وإن كان قاصيا تدنه ، وإن كان عصيًا ذللته، وإن كان مكنيًا صرحت به ، وإن كان معقولاً نقلته إلى الحس ، وإن كان معلومًا بالفكر

نقلته إلى ما يعلم بالاضطرار والطبع ، وإن كان غائبًا أحضرته ، وإن كان وهمًا جعلته يقينًا ، وإن كان محسوسًا شخصته وألبسته ثوب الحياة وصفات الأحياء ، فترى الأشخاص وحركاتهم ، وتسمع الصوت ، وتشم الروائح وتذوق المطعومات ، وتلمس الأجساد ، كل هذا وأنت تقرأ أو تسمع ؛ وهو ما أشار إليه عبد القاهر حين قال : « والتمثيل يوجد عام لتأثيره أسباب وعلل كل منها يتقضي أن يفخم به المعنى ويبجل ، ويشرف ويكمل ، فأول ذلك وأظهره أن أنس النفس موقوف على تخرجها من خفي إلى جلي ، وتأتيها بصريح بعد مكني ، وأن تردها في الشيء تعلمها إياه إلى شيء آخر هي بشأنه أعلم ، وثقتها به في المعرفة أحكم ، نحو أن تنقلها من العقل إلى الإحساس، وعما يعلم بالفكر إلى ما يعلم بالاضطرار والطبع ، لأن العلم المستفاد من طرق الحواس ، أو المركوز فيها من جهة الطبع ، وعلى حد الضرورة يفضل المستفاد من جهة النظر والفكر في القوة والاستحكام و بلوغ الثقة فيه غاية التمام ، كما قالوا : ليس الخبر كالمعاينة ولا الظن كاليقين .. فأنت إذن مع مع الشاعر وغير الشاعر إذا وقع المعنى في نفسك غير ممثل ، ثم مثله ، كمن يخبر عن شيء من وراء حجاب ، ثم يكشف عنه الحجاب ، ويقول ها هو ذا فأبصره تجده علي ما وصفت »[1].

كما أبرز قيمة التمثيل وأثره في النفس ، وكيف يودع في التعبير من الجمال والأسرار ما يسمو بالمعنى ويصل إلى الغرض منه ، يقول عبد القاهر: « اعلم أن التمثيل إذا جاء في أعقاب المعاني أو برزت هي باختصار في

(١) أسرار البلاغة - ٢٣٤- ٢٣٥- تحقيق خفاجي .

معرضه ، ونقلت عن صورها الأصلية إلى صورته ، كساها أبهة ، وكسبها منقبة ، ورفع من أقدارها ، وشب من نارها ، وضاعف من قواها في تحريك النفوس لها ، ودعا القلوب إليها ، واستثار لها من أقاصي الأفئدة صبابة وكلفًا ، وقسر الطباع على أن تعطيها محبة وشغفًا ، فإن كان مدحًا كان أبهى وأفخم ، وأنبل في النفس وأعظم ، . وإن كان ذمًا كان مسه أوجع ، وميسمه ألذع ووقعه أشد ، وحده أحد ، وإن كان حجاجًا كان برهانه أنور ، وسلطانه أقهر ، وبيانه أبهر ، وإن كان افتخارا كان شأوه أبعد ، وشرفه أجد ، وإن كان اعتذارًا كان إلى القبول أقرب للقلوب أخلب .. ، وإن كان وعظًا كان أشفى للصدر ، وأدعى إلى الفكر .... ، وهكذا الحكم إذا استقريت فنون القول وضروبه وتتبعت أبوابه وشعوبه »[1]، وهو ما أشار إليه غير واحد من العلماء الذين لهم باع في هذا الصدد كالزمخشري الذي يرى أن لضرب الأمثال واستحضار النظائر شأنًا ليس بالخفي في إبراز خبيئات المعاني ، ورفع الأستار عن الحقائق حتى يريك المتخيل في صورة المتحقق والمتوهم في معرض المتيقن والغائب كأنه مشاهد ، وفيه تبكيت للخصم الألد ، وقمع لسورة الجامح الأبي ، ولأمر ما أكثر الله تعالى في كتابه المبين وفي سائر كتبه من الأمثال »[2] . والأصبهاني يقول : « لضرب العرب الأمثال ، واستحضار العلماء النظائر شأن ليس بالخفي في إبراز خفيات الدقائق ورفع الأستار عن الحقائق تريك المتخيل في صورة المتحقق ، والمتوهم في معرض المتيقن ، والغائب كأنه مشاهد ، وفي ضرب الأمثال تبكيت للخصم الشديد الخصومة ، وقمع

(١) أسرار البلاغة - ٢٢٦ - تحقيق خفاجي .

لسورة الجامح الأبي ، فإنه يؤثر في القلوب ما لا يؤثر في وصف الشيء في نفسه ، ولذلك أكثر الله تعالى في كتابه وفي سائر كتبه الأمثال، وفشت في كلام النبي - ﷺ - وكلام الأنبياء والحكماء »[1] كما أشار إلى ذلك صاحب « التمثيل في القرآن » فقال : « والقصد من التمثيل هو إبراز دقائق المعاني ، ورفع الأستار عن الحقائق والانتقال بالذهن من المدرك بالعقل إلى المشاهد بالحس ، وتصوير خلجات النفوس ونبضات القلوب ، في صورة مألوفة ، هي أدنى إلى المدارك ، وأقرب إلى الأفهام لتقرر المعاني في النفوس ويعرف مقدارها وحالها ، أو لتزيل ما يعترض قبولها من شك في وقوعها أو ريب في إمكانها ، وقد كان الكتاب الكريم في ذلك النصيب الأوفى والقدح المعلى ، وكان لتمثيله من الأثر في النفوس والاستيلاء على العقول ما انتزع منها الجهالة ، وأزال عنها الغشاوة ، وقضى على ما وقر فيها من باطل وضلال ، والكتاب الكريم ملئ بصور التمثيل القرآني التي أفحمت المكابرين ، وألجمت المعاندين ، ووقف أمامها فصحاء اللسان ، وفرسان البيان ، وهم أعجز عن أن يأتوا بشيء يشم منه رائحة الشبه بينه وبين آي الذكر الحكيم [2]، وكذلك أشار إلى هذا الإمام أبو السعود[3] . والإمام الزركشي[4] ، والشيخ محمد أبو زهرة ،[5] والشيخ الشعراوي [6]، وغيرهم ممن تعرضوا لهذا البحث ، ويقول الشهيد سيد قطب مقرراً أن التصوير أصبح سمة قرآنية تعبيرية :

(١) معترك الأقران للسيوطي - ١/ ٤٦٥.
(٢) خليل محمد خليل ١٠، ١١.
(٣) تفسير أبي السعود - ١/ ٣٩.
(٤) البرهان ١/ ٤٨٧.
(٥) المعجزة الكبرى - ٣٨١.
(٦) الأمثال في القرآن - ٩ - ١٢ - ط دار المسلم إعداد عبد القادر أحمد عطا.

« التصوير هو الأداة المفضلة في أسلوب القرآن ، فهو يعبر بالصورة المحسة المتخيلة عن المعنى الذهني ، والحالة النفسية ، وعن الحادث المحسوس ، والمشهد المنظور ، وعن النموذج الإنساني والطبيعة البشرية ، ثم يرتقي بالصورة التي يرسمها فيمنحها الحياة الشاخصة ، أو الحركة المتجددة ، فإذا المعنى الذهني هيئة أو حركة ، وإذا الحالة النفسية لوحة أو مشهد ، وإذا النموذج الإنساني شاخص حي ، وإذا الطبيعة البشرية مجسمة مرئية ، فأما الحوادث والمشاهد والقصص والمناظر ، فيردها شاخصة حاضرة ، فيها الحياة ، وفيها الحركة ، فإذا أضاف إليها الحوار ، فقد استوت لها كل العناصر التخييل »[1].

وسر ذلك أن منطقة تعقل الأمور المعنوية العقلية المجردة لها خصائص منها :

١- بعيدة الأغوار مما يؤدي إلى سعة شقة الاختلاف .

٢- مجال التناقض فيها واضح فيختلف الناس فيها ما بين عالم وجاهل وشخص وآخر ، ما بين مشرق ومغرب .

٣- لا يدركها كل الناس فلا يدركها إلا من نضج تعقله كالعلماء ومن في مستواهم ، كما قال تعالى :

﴿ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ ﴾[2].

(١) التصوير الفني - ٣٢.
(٢) العنكبوت - ٤٣.

٤- تدرك المعقولات إلى مستوى معين بحسب استعداد كل فرد .

٥- منطقة فيها غبش وعدم وضوح وكثيرا ما يميل بها الهوى يمنة أو يسرة ، ولأنها تعود إلى قدرة الشخص وطاقاته وإمكاناته في تعقل المعنوي وتخيله وتصوره ، والنفس تكره ما جهلت ولو كان نافعًا ، وكما قيل : « من جهل شيئا عاداه » .

٦- الخلاف فيها وارد ما بين شخص وآخر في الشيء الواحد ، أو بين الشخص ونفسه من وقت لآخر .

٧- تتحكم فيها العصبية أيًا كان لونها والهوى والرغبات والنزوات ، وهذا سر مخاطرها وعدم أمانها ، واختلال نتائجها واختلافها في كثير من الأحيان .

٨- لذلك نترك هذه المنطقة الجامعة لكل ذلك الخلاف المائعة المطاطية ، والتي قل من يبحر فيها ويخرج سالمًا ، ونذهب إلى بر الحس فهو شاطئ الأمان والسلام ، فحكمه بالدليل أو المعاني مؤكدة بدليل مادي محسوس ، يقل الخلاف فيه بين الشخص ونفسه ، وبين الشخصين مما يؤدي إلى نتيجة واحدة ، أو مؤدى واحد ، وهو الوضوح والبيان ليؤدي بدوره إلى الإتفاق على الأمر الممثل الواضح ، ومنطقة الحواس تدرك المحسوسات بسهولة دون تعب أو مشقة ، مما لا يوجد في الأمر المعنوي ولذا لجأ المربون ومن يعملون بالثقافة وبالتمثيل إلى إخراج الأمر المعنوي، إلى أمر محسوس رؤية مصورة أو ملموسة أو مسموعة أو مشمومة أو مذاقة ، فهذا أمره واضح لا ينكر ، وتقل نسبة الخلاف فيه أو

تنعدم ، كما أنها منطقة مشتركة بين أكبر فئة من الناس، فنسبة التفاوت فيها قليلة ، فهي الطريقة الشعبية التي يشترك فيها الجميع ، ويستقبلون بها العالم الخارجي . ولذا عاب الله على من لم يستعمل هذه الحواس في الوصول إلى الحق ، وفضل عليهم الأنعام : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ (١).

أما أمر العقل وتعقله للأمور المعنوية فلم يلم فيها إلا العلماء ؛ لأنهم هم الذين يعقلون هذه الأوامر عن الله تعالى .

وإذا أردنا الإمتاع والإثارة لجأنا إلى منطقة التشخيص ففيها الحركة والإثارة والصوت واللون والشم وكلها عناصر لإحياء الصورة وإثارة الخيال والوجدان ، فتحقق الإمتاع الذي يدعو إلى قبول ما يدعى إليه .

وهنا نسأل أنفسنا سؤالاً هو : ما مزية هذه الطريقة على الطريقة العادية في التعبير ؟ يجيب على هذا السؤال الأستاذ / سيد قطب فيقول: « ولهذه الطريقة ، فضلها ولا شك في إداء الدعوة لكل عقيدة ، ولكننا إنما ننظر إليها من الوجهة الفنية البحتة ، وإن لها من هذه الجهة لشأنا ، فوظيفة الفن الأولى إثارة الانفعالات الوجدانية ، وإشاعة اللذة الفنية بهذه الإثارة ، وإجاشة الحياة الكامنة بهذه الانفعالات ، وتغذية الخيال

(١) الأعراف - ١٧٩.

بالصور لتحقيق هذا جميعه ، وكل أولئك تكفله طريقة التصوير والتشخيص للفن الجميل »[1]، ويقول أحد الباحثين : « يكفي لبيان هذا الفضل أن تتصور هذه المعاني كلها في صورتها التجريدية ، وأن تتصورها بعد ذلك في الهيئة الأخرى التشخيصية ، إن المعاني في الطريقة الأولى تخاطب الذهن والوعي ، وتصل إليهما مجردة من ظلالها الجميلة، وفي طريقة التصوير تخاطب الحس والوجدان ، وتصل إلى النفس من منافذ شتى : من الحواس بالتخييل ، ومن الحس عن طريق الحواس ، ومن الوجدان المنفعل بالأصداء والأضواء ، ويكون الذهن منفذاً واحداً من منافذها الكثيرة لا منفذها الوحيد »[2].

والبيان ،والوضوح الذي هو مناط التمثيل الذي يصل بالحقائق إلى أبعاد النفس وأغوارها يضع النفس أمام الحقائق فتواجهها مباشرة واضحة بلا تعب ولا مشقة ولا لف ولا دوران وتضع الإنسان أمام نفسه في خيار أو في صراع ، بعد أن اتضح له الحق وظهر ، هل يستجيب أم يظل سادراً كما هو في غيه ، وسواء استجاب أم لم يستجب ، فإن الحق قد وصله وأحرجه أمام نفسه : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ﴾ [3]، فإن لم يستجب اليوم يستجب غداً ، ومد من القرع للأبواب أن يلجا .

---

(١) التصوير الفني - ١٩٤ ط ٦ / دار الشروق .
(٢) موسوعة أمثال القرآن د/ محمد عبد الوهاب عبد اللطيف جـ ٢ / ٤٢٧.
(٣) سبأ - ٤٦ .

ويساند ذلك إذا كان هذا البيان والوضوح يسبب متعة لجماله وروعته وشدة تأثيره ، وسحره للنفوس ، أو إبهاره لها ، أو إنبهارها به ، فتنفرج أسارير الإنسان وينفعل بعاطفة الفرح والسرور والرغبة ، ويقبل على ما كان معرضًا عنه ، وتسلم نفسه بما يقضي به إذا كان مؤمنًا فيستجيب لأمر الله .

أما إذا كان منافقًا أو كافرًا فيحصل له تحيد وزحزحة عما هو عليه شيئًا فشيئًا إلى أن تتم الاستجابة الكاملة ، وهو أثر من آثار التصوير في الأمثال بالترغيب .

وعلى الجانب الآخر إذا كان الوضوح يسبب إزعاجًا أو إيلامًا للنفس فتنفعل بعاطفة الرهبة أو الخوف فترهب وتخاف !! فماذا يضطرها أن تحيا هذه الحياة المزعجة المؤلمة التي تسبب لها خوفًا أو رهبة ، فتترك ما كانت مصرة عليه ، فتحدث لها عملية التطهير ، وتسلم النفس بما تقضي به ، وهو أثر من آثار التصوير كذلك للترهيب .

وكما قالوا : « النفس لا يحركها إلا شوق مبهج أو خوف مزعج» فإذا تحركت وهو المطلوب فإنه أثر من آثار بلاغة القرآن وإعجازه وروعة تصويره خاصة في الأمثال القرآنية .

خصائص الأمثال القرآنية

من خلال ما ذكرنا من تأثير الأمثال في النفس البشرية ، والتي حددنا بها وظيفة الأمثال في توضيح المعنى وتبيينه والمبالغة في ذلك، كأنه

محس مشخص مصور، يتحرك ويسمع وجدنا لها خصائص متعددة ذكرها الباحثون فمنها ما ذكره إبراهيم النظام قال : يجتمع في المثل أربعة لا تجتمع في غيره من الكلام :

١- إيجاز اللفظ ٢- إصابة المعنى ٣- حسن التشبيه

٤- جودة الكناية فهو نهاية البلاغة[١] .

قال أبو عبيد : الأمثال حكمة العرب في الجاهلية والإسلام ، وبها كانت توشي .كلامها فتبلغ بها حاجاتها بكناية غير تصريح ، فيجتمع لها بذلك ثلاث خلال : إيجاز اللفظ ، وإصابة المعنى وحسن التشبيه ، وقد ضربها النبي -ﷺ- وتمثل بها هو ومن بعده من السلف [٢] .

٥- التصوير ونظراً لكونه السمة الغالبة على التعبير القرآني ، فإنها تشمل فيما تشمل الأمثال التي « تمثل على اختلافها لوحات فنية رائعة التصوير لمشاهد الطبيعة بأشكالها وأنواعها المختلفة من داخل البيئة العربية ومن خارجها ، مؤلفًا بين القيم والمبادئ ، وبين مشاهد الطبيعة التي يعيش الإنسان في أكنافها وفي ذلك توحيد للحقائق الكونية في كتاب الله المنظور وفي كتابه المقروء [٣] . وقد سبق الإفاضة في ذلك .

٦- إضفاء طابع القصة الموجزة المكثفة بما يعطي بعض التفصيلات والسمات في أوجز عبارة يقول أحد الباحثين في هذا الشأن « تأخذ

(١) مجمع الأمثال للميداني .
(٢) المزهر للسيوطي - ١/ ٤٨٦.
(٣) روائع القرآن للبوطي - ٢١٦ بتصرف .

الأمثلة في أغلب الأحيان طابع القصة في عرض الجزئيات وتفصيل صفاتها،وذلك على خلاف المألوف عند العرب من تكثيف المثال وعرضه في أقل قدر ممكن من الكلمات،ويضرب مثالاً على ذلك بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾[١].

فالعرب قد يضربون المثل للشيء الخادع بالسراب دون تعريج على أي تفصيل في المثال أو بسط صورته ، ولكن القرآن عندما يضرب به المثل يبسط منه صورة حية يتراءى فيها كيف ينخدع الظمآن به ، ثم يسعى وراءه ،حتى إذا جاءه فوجئ بأنه ليس شيئًا ، ووجد بدلاً عنه ثمرة انخداعه من الجهد الضائع ، والانقطاع عن الرفقة والطريق [٢] .

٧- الإيجاز ومن المعلوم أنه نوعان : إيجاز قصر وإيجاز بالحذف ، وكثيراً ما يحذف من المثل المعنى الممثل له كما هو معهود في مألوف اللغة العربية وأسلوبها ، ويكون المحذوف مطويًا يشار إليه في تضاعيف المثال على غرار الاستعارة في دلالتها على المعنى الأصلي المقصود ، وهو ألصق وأبلغ إذا لم يكن هناك ما يدعو إلى التصريح به .. وذكر أمثلة على ذلك :

﴿ وما يستوي البحران ....﴾

(١) النور - ٣٩.
(٢) روائع القرآن للبوطي - ٢١٦ بتصرف .

﴿ وضرب الله مثلاً رجلاً ... ﴾

﴿ والبلد الطيب يخرج نباته ... ﴾ (١)

وإيجاز الحذف موجود بكثرة، والمحذوف يشار إليه في تضاعيف الكلام كقوله تعالى : ﴿ ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثًا ﴾ فهنا محذوفات كثيرة اقتضاها السياق، بأن هذه المرأة ذهبت إلى السوق ، واشترت الصوف ، وأحضرت العمال فنفشوا الصوف ، وغزلوه ، ونسجوه ثم نقضوه ، فهذه كلها محذوفات يشير إليها السياق بكلمة غزلها ، والغزل لا يكون كذلك مرة واحدة ، ولكن لابد أنه مر بهذه المراحل التي أشرنا إليها ، وهذا أيضا من إعجاز المثل القرآني كما سيتضح فيما بعد .

فإلى أمثال المؤمنين نستعرض فيها معالم الإعجاز القرآني ، في تربية المؤمنين وتوجيههم إلى حمل تبعات العقيدة الصحيحة ، وإقامة المجتمع الإيماني ، وحمل أعباء الدعوة والجهاد، في أسلوب بياني بلغ قمة الإعجاز خاصة في الأمثال التي جمعت كثيرًا من معالم الإعجاز في القرآن الكريم .

---

(١) روائع القرآن للبوطي - ٢١٦ بتصرف .

المثل الأول

وفيه ترغيب باتباع هدى الله تعالى ، فإنه نور ، وكيف يعيش الإنسان بلا نور ؟ !!

جاء قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (١).

توجيه من الله لعباده بأن يتبعوا هداه ، ويتطلعوا إلى نوره الذي غمر السموات والأرض لأنه نور الله ، « فالقرآن يقدم « الله» إلى عباده في موكب حافل من آيات قدرته ورحمته وعظمته فمن هو الله ؟ إن القرآن لا يحدثنا عن لونه ولا عن حجمه ، ولا عن شخصه ، لأن الله أعلى وأجل من أن يعرف بهذه الأعراض ، ثم ذكر قول الله تعالى : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾(٢) .فالقرآن يضرب مثلاً لنور الله الذي نور السموات والأرض بالحق ، والمراد بالمثل الصفة العجيبة أي صفة نوره العجيبة(٣) . ، ويقول الترمذي : « ضرب المثل لنوره في قلب المؤمن ليعلمه قدره ومنزلته ، فدله بالحاضر على ما أعد له في الآجل »(٤) .

---

(١) النور - ٣٥.
(٢) كما تحدث القرآن / خالد محمد خالد - ١٦١.
(٣) تفسير أبي السعود - ٤/ ٥٩.
(٤) الأمثال من الكتاب والسنة للترمذي - ٢٦ تحقيق البجاوي .

ليوضحه لنا ويبين لنا أن هذه نعمة من نعمه علينا ، وترغيب لنا في اتباعه ، لأن من صفته كذا وكذا كما سنرى مما يرغب في اتباعه .

فمال المقصود بالنور؟

أقوال كثيرة منها ما قاله الألوسي : « أدلة الله العقلية والسمعية في السموات والأرض التي هدى بها من شاء إلى ما فيه صلاحه ثم ذكر أن المقصود القرآن ، وقيل الحق ، وقيل الهدى ، وقيل المعارف والعلوم التي أفاضها الله عز وجل على قلب المؤمن ، وقيل الإيمان ، وقيل الطاعات ، وقيل الرسول - ﷺ - »[1]، وقال الخازن : « إنما هو مثل ضربه الله لنوره ، وأورد آراء أخرى »[2]. وبلغت الآراء عشرة عند الرازي في المقصود بنوره ، ولكنه رجح الرأي القائل بأن المراد « مثل هداه »[3]. ، ويقول الطبري : « وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال : ذلك مثل ضربه الله للقرآن في قلوب أهل الإيمان به ، فقال : مثل نور الله الذي أنار به لعباده سبيل الرشاد الذي أنزله الله إليهم فآمنوا به وصدقوا بما في قلوب المؤمنين مثل مشكاة »[4]. صفتها كذا وكذا .

ونرى أن هذا النور هو شرع الله ، وهو الإسلام الذي أنزله الله على نبيه - ﷺ - وأمره بتبليغه إلى الناس فهو نور الله الذي قامت السموات والأرض من أجله ، وكانت الجنة والنار ، والبعث والحساب

(١) تفسير الألوسي - ١٨ / ١٦٥.
(٢) تفسير الخازن - ٣/ ٣٣١.
(٣) تفسير الرازي - ٢٣/ ٢٣٣- ٢٣٦.
(٤) تفسير الطبري - ١٨/ ١٠٨.

والميزان والثواب ، والعقاب ، يقول أبو الأعلى المودودي : « إن كلمة النور لم تطلق على الله سبحانه وتعالى بهذا المعنى الضيق المحدود ، وإنما أطلقت عليه بمعناها المطلق الواسع غير المحدود : أي أن الله سبحانه وتعالى وحده سبب الظهور في الكون ، أما الأجرام اللامعة ، فهي لا تنور إلا بالنور المنعم بها عليه من الله تعالى »[1]. فالقرآن الكريم بتوجيهاته وتعاليمه « عالج الكيان البشري حتى أشرق بالنور وتطلع إلى الأفق الوضيء ، واستشرف النور الكبير في آفاق السموات والأرض ، وهو على استعداد لتلقي الفيض الشامل الغامر في عالم كله إشراق وكله نور : « الله نور السموات والأرض » ، وما يكاد النص العجيب ينجلي حتى يفيض النور الهادئ الوضيء ، فيغمر الكون ، كله ، و يفيض على المشاعر والجوارح ، وينسكب في الحنايا والجوانح ، وحتى يسبح الكون كله في فيض النور الباهر ، وحتى تعانقه وترشفه العيون والبصائر ، وحتى تنزاح الحجب ، وتشف القلوب ، وترف الأرواح .. وإذا الكون كله بما فيه ومن فيه نور طليق من القيود والحدود تتصل فيه السموات بالأرض .. النور الذي منه قوامها ومنه نظامها فهو الذي يهبها جوهر وجودها ، ويودعها ناموسها »[2].

ولكن، علام يعود الضمير في قوله تعالى : « مثل نوره »؟ أقوال كثيرة ، ولكن الراجح أن الضمير يعود على اسم الله تعالى ، فالمقصود

(١) تفسير سورة النور - ١٩٨- ٢٠٠ بتصرف ط دار الاعتصام .
(٢) في ظلال القرآن - ٤/ ٢٥١٨، ٢٥١٩.

بنوره نور الله تعالى [1]، وهنا يظهر اعتراض حيث أخبر أنه هو النور، ثم أضافه إليه في قوله تعالى : « مثل لنوره » والمضاف غير المضاف إليه. يجيب السيوطي على هذا الاعتراض فيقول : « إن ذلك يصح مع التأويل الذي قدمناه : أي الله منور السموات والأرض النور المدرك بالأبصار، فمعناه أن الله خلق النور فيهما من الشمس والقمر والنجوم، أو أنه خلقهما وأخرجهما من العدم إلى الوجود، فإنما ظهرت به كما تظهر الأشياء الضوء، ومن هذا المعنى قرأ علي بن أبي طالب : « نُوِّرَ السموات والأرض » (بفتح النون وتشديد الواو مفتوحة، وفتح الراء) أي : جعل فيهما النور، وإن أراد بالنور المدرك بالقلوب، فمعنى نور السموات والأرض، أي : جاعل النور في قلوب أهل السموات والأرض، ولذلك قال ابن عباس : معناه هادي أهل السموات والأرض» [2]، ويقول الشريف الرضي : « وقوله سبحانه : ﴿ الله نور السموات والأرض ﴾ وهذه استعارة والمراد بذلك عند بعض العلماء أنه هادي السموات والأرض بصوادع برهانه، ونواصع بيانه، كما يهتدي بالأنوار الثاقبة والشهب اللامعة، وقال بعضهم : المراد بذلك - والله أعلم - الله منور السموات بمطالع نجومها، ومشارق أقمارها وشموسها»[3]، « وهو مثل يقرب للإدراك المحدود صورة غير المحدود،

(١) انظر إعراب القرآن للزجاج ق٢ / ٥٧٣، التسهيل للغرناطي ٣/ ١٤٥، تفسير الطبري - ١٨/ ١٠٥، ١٠٦، تفسير البيضاوي ٣٨٢، الكشاف للزمخشري - ٣/ ٧٢، تفسير الألوسي - ١٨ / ١٦٥، معترك الأقران للسيوطي ٢/ ٣٦٢، أمثال القرآن للشعراوي - ١٣ - ٢٤.
(٢) معترك الأقران للسيوطي - ٢/ ٣٦٣.
(٣) تلخيص البيان في مجازات القرآن - ٢٤٥.

ويرسم النموذج المصغر الذي يتأمله الحس حين يقصر على تملي الأصل، وهو مثل يقرب للإدراك طبيعة النور حين يعجز عن تتبع مداه وآفاقه المترامية وراء الإدراك البشري الحسير» [1].

« كمشكاة » كصفة مشكاة في الإنارة والتنوير، وفي تجميع ضوء المصباح الذي يوضع فيها، وهي الكوة الصغيرة في الجدار غير النافذة، هذا ما مال إليه جمهور المفسرين، ذكره الألوسي بعد أن ذكر آراء عديدة[2]، ويقول الطبري : « يقصد بها صدر المؤمن، وبالمصباح القرآن، والإيمان وبالزجاجة قلبه، والمشكاة القنديل [3]، أو عمود القنديل الذي فيه الفتيلة، وذلك نظير الكوة التي تكون في الحيطان التي لا منفذ لها، وإنما جعل ذلك العمود مشكاة، لأنه غير نافذ، وهو أجوف مفتوح الأعلى فهو كالكوة في الحائط، لا تنفذ »[4]، ورأي الجمهور على أن المراد بالمشكاة الكوة الصغيرة غير النافذة.

ولكن ما أصل الكلمة ؟

قال ابن قتيبة : لفظ حبشي معرب [5]، وقيل رومي معرب، وقال الزجاج : يجوز أن يكون عربيا [6]، والمشكاة تجمع الضوء وتعكسه وتقويه، كما تحميه من تيارات الهواء التي تتلاعب بالضوء فتضعفه أو تعصف به بالمرة فتطفئه.

(١) في ظلال القرآن - ٤/ ٢٥١٩.
(٢) تفسير الألوسي - ١٨، ١٦٥.
(٣) تفسير الطبري - ١٨/ ١٠٦.
(٤) تفسير الطبري - ١٨/ ١٠٨.
(٥) مشكل القرآن - ٣٢٨.
(٦) إعراب القرآن ق٢/ ٥٧٣.

وقوله : « فيها مصباح » وهو السراج ، وجعل السراج - وهو المصباح مثلاً لما في قلب المؤمن من القرآن والآيات المبينات [1]، والمعنى صفة نور الله في وضوحه كصفة مشكاة فيها مصباح على أعظم ما يتصوره البشر من الإضاءة ، وإنما شبه بالمشكاة ، وإن كان نور الله أعظم؛ لأن ذلك غاية ما يدركه الناس من الأنوار ، فضرب المثل لهم بما يوصل إلى إدراكه » [2].

« المصباح في زجاجة » يعني أن المصباح الموجود في المشكاة في زجاجة صافية ، تزيده ضياء وبريقًا ولمعانًا ، وزيادة في الإشعاع والنفاذ، فإن الزجاج يحافظ على الضوء من الريح ، ويصفى نوره فيتألق ويزداد ، والسراج يزيده لمعانًا وبريقًا ، « وذلك مثل القرآن الذي في قلب المؤمن الذي أنار الله قلبه في صدره ، ثم مثل الصدر في خلوصه من الكفر بالله والشك فيه ، واستنارته بنور القرآن ، واستضاءته بآيات ربه المبينات ومواعظه فيها بالكوكب الدري » [3].

« الزجاجة كأنها كوكب دري » الزجاج : جوهر صلب شفاف رائق صاف يزيد ضوء المصباح بتجميعه ولمعانه ، والكوكب جرم سماوي يدور حول الشمس ، ويستضئ بضوئها ، ويلمع ويبرق بعكس لضوئها ، والدري : الكوكب المتلألئ الضوء ، والجمع دراري ، «وهي منقولة من الحبشية ومعناه المتلألئ كالزهرة [4]، أي : أن الزجاجة بما فيها

(١) تفسير الطبري - ١٨- ١٠٨.
(٢) معترك الأقران - ٢/ ١٧٨.
(٣) تفسير الطبري - ١٨/ ١٠٨.
(٤) أربعة عشر قرنًا مع القرآن الكريم / عبد الخالق أبو راية - ٧٦.

من تقوية للضوء ، وحفاظ عليه كأنها من شدة البريق واللمعان والإضاءة كوكب دري شديد اللمعان والتلألؤ بانعكاس ضوء الشمس عليه ، فما بالك إذا كان فيها مصباح مضيء لامع ؟ فإن انعكاس الأضواء من الزجاجة يزيد المصباح نورًا ، ويقوي النور ، وفي تكرير المصباح والزجاجة تفخيم وتهويل لشأنهما كقوله تعالى : القارعة ما القارعة ؟ يقول الألوسي : « وفي إعادة المصباح والزجاجة معرفين بعد التنكير ، والإخبار عنهما بما بعدهما مع انتظام الكلام بأن يقال : كمشكاة فيها مصباح في زجاجة كأنها كوكب دري من تفخيم شأنها ، ورفع مكانتهما بالتفسير إثر الإبهام ، والتفصيل بعد الإجمال ، وبإثبات ما بعدهما لهما بطريق الإخبار المنبئ عن القصد دون الوصف المنبئ عن الإشارة إلى الثبوت في الجملة ما لا يخفى »[1].

« يوقد من شجرة مباركة زيتونة » أي يوقد المصباح من زيت شجرة مباركة ، وهي شجرة الزيتون « أي يبتدئ إيقاد المصباح من شجرة ، وصفت بالبركة لكثرة منافعها ، أو لأنه ينبت في الأرض المباركة ، وهي الشام ، وكل هذا تفخيم لشأنها ، وزيتونة بدلاً من مباركة ، وهذا مما يقوي التفخيم »[2] . فعظم من شأن الشجرة التي كانت معروفة عندهم بالصفاء ، والنقاء ،« ونور زيت الزيتون كان أصفى نور يعرفه المخاطبون، ولكن ليس لهذا وحده كان اختيار هذا المثل ، إنما هو كذلك

(١) تفسير الألوسي - ١٨/ ١٦٨.
(٢) انظر : الألوسي ١٨/ ١٦٧ ، التسهيل للغرناطي - ٣/ ١٤٦ ، تفسير البيضاوي - ٣٨٣ ، الكشاف - ٣/ ٧٧.

الظلال المقدسة التي تلقيها الشجرة المباركة ، ظلال الوادي المقدس في الطور ، وهو أقرب منابت الزيتون لجزيرة العرب ، وفي القرآن إشارة لها وظلال حولها : «وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ للآكلين » وهي شجرة معمرة، وكل ما فيها مما ينفع الناس، زيتها وخشبها وورقها وثمرها .. ومرة أخرى يلتفت من النموذج الصغير ليذكر بالأصل الكبير»[1] .

« لا شرقية ولا غربية » ذكر الحسن البصري أنها من شجر الجنة[2]، وهذا ضعيف ومردود عليه[3] ، وضعف الرازي آراء أخرى حول الشجرة[4]، وقال الثعلبي : وقد أفصح القرآن بأنها من شجر الدنيا لأنها بدل من الشجرة ، فقال : « زيتونة »[5] ، وقال الفراء والزجاج : معناه لا شرقية وحدهاولا غربية وحدها ، ولكنها شرقية وغربية ، وهو كما يقال : فلان لا مسافر ولا مقيم ، إذا كان يسافر ويقيم ، وهذا القول هو المختار ، لأن الشجرة متى كانت كذلك كان زيتها في نهاية الصفاء، وحينئذ يكون مقصود التمثيل أتم وأكمل »[6]، وقد أكد هذا المعنى الثعالبي ، فقال : «وفي القرآن لا شرقية ولا غربية يعني أن الزيتونة شرقية وغربية ، وفي أمثال العامة : فلان كالخنثى لا ذكر ولا أنثى ، أي يجمع صفات الذكران

(١) في ظلال القرآن ٤ / ٢٥١٩ ، ٢٥٢٠ .
(٢) تفسير ابن كثير - ٣/ ٢٩١.
(٣) تفسير النيسابوري - ١٨ / ٩٥ ، تفسير الرازي - ٢٣/ ٢٣٧.
(٤) تفسير الرازي - ٢٣/ ٢٣٧، ٢٣٨.
(٥) القرطبي - ١٢/ ٢٥٩.
(٦) تفسير الرازي - ٢٣/ ٢٣٨.

والإناث معًا »[1] ، وذكر الطبري روايات عدة منها السابق ، ومنها : ألا يسترها من الشمس جبل ولا واد ، إذا طلعت وإذا غربت ، أي أن الشمس تصيبها في حالة الشروق والغرب ، ومنها أن الشجرة وسط الشجر ليست من الشرق ولا من الغرب »[2].

وفي قوله تعالى : ﴿ يكاد زيتها يضيئ لو لم تمسسه نار﴾ والفعل يكاد من أفعال المقاربة أي قارب هذا الزيت أن يضيئ وحده دون نار ، « وهذه مبالغة في وصف الزيت بالصفاء والخلاصة ، لا على طريق المجاز والاستعارة حتى يقارب أن يضيء من غير أن يتصل بنار ونياط بذلك»[3]، وابن قتيبة يوضح ذلك ، فيقول : « إنما وصف الزيت بالصفاء والجودة ، فإذا كان شجرة شرقيًا وغربيًا كان زيته لا شك أجود وأصفى وأضوأ »[4]، وزيتها ليس زيتًا من هذا المشهود المحدود وإنما هو زيت آخر عجيب .. فهو من الشفافية ، ومن الإشراق بذاته حتى ليكاد يضيء بغير احتراق ، ولو لم تمسسه نار»[5].

فقد بلغ كل شيء درجة الكمال والتمام من صفاء الزيت ، وصفاء زجاج المصباح ، وصفاء نوره ، والمشكاة أحكمت النور وجمعته ، مما جعله أقوى وأكمل من كل نور ، فلا شك أنه يضيء للناس حياتهم ، ومعالم دنياهم وأخراهم، وبه تكون سعادتهم .

(١) فقه اللغة وأسرار العربية للثعالبي - ق٢ / ٢٢١.
(٢) تفسير الطبري - ١٨ / ١٠٩.
(٣) تلخيص البيان في مجازات القرآن للشريف الرضي - ٢٤٥.
(٤) تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة - ٣٢٨، تفسير القرطبي - ١٢/ ٢٥٩.
(٥) في ظلال القرآن - ٤/ ٢١٥٢٠ .

وفي قوله تعالى : « نور على نور » اجتمعت أنوار كثيرة من المشكاة المجمعة للضوء ، العاكسة له ، المحافظة عليه من التفرق بالرياح ، فيها المصباح ، هذا المصباح المصدر للضوء في زجاجة من شأنها أن تزيد الضوء بعكسها له وبريقها ولمعانها ، يوضع في المصباح زيت طيب صاف جيد في الإضاءة ، لأنه جاء من شجرة مباركة ، جمعت بين مزايا الشرق والغرب ، وقد فسرها الغرناطي بقوله : « يعني اجتماع نور المصباح ، وحسن الزجاجة ، وطيب الزيت ، والمراد بذلك : كمال النور الممثل به »[1] ، ويعقب الألوسي على هذه العبارة بقوله : « والجملة فذلكة للتمثيل وتصريح بما حصل منه ، وتمهيد لما يعقبه ، ثم يوضح أن هذا التعبير قصد به أنه نور متضاعف من غير تحديد »[2] .

ويقول الرازي : واعلم أن الأمور التي اعتبرها الله تعالى في هذا المثال مما توجب كمال الضوء :

١- المصباح ، وفرق بين كون المصباح في زجاجة وفي غير زجاجة.

٢- كون المصباح في زجاج ، وهذا يؤدي إلى انعكاس الأشعة المنفصلة عن المصباح علي بعض جوانب الزجاجة .

٣- أن ضوء الزيت يختلف بحسب اختلاف شجرته ، فإذا كانت لا شرقية ولا غربية يكون زيتها أشد نضجًا ، فكان زيته أكثر صفاء ، وأقرب إلى أن يتميز صفوه من كدره ، ثم يقول : فاذا اجتمعت هذه الأمور الأربعة ، وتعاونت صار ذلك الصفو خالصًا كاملاً ، فيصلح

(١) التسهيل - ٣/ ١٤٦.
(٢) تفسير الألوسي - ١٨/ ١٦٩.

ليجعل مثلاً لهداية الله تعالى »[1] ، « وبذلك نعود إلى النور العميق الطليق في نهاية المطاف ، إنه نور الله الذي أشرقت به الظلمات في السموات والأرض ، النور العميق الطليق في نهاية المطاف ، إنه نور الله الذي أشرقت به الظلمات في السموات والأرض ، النور الذي لا ندرك كنهه ولا مداه ، وإنما هي محاولة لوصل القلوب به ، والتطلع إلى رؤياه »[2] .

ويوضح الشيخ / محمد متولي الشعراوي هذه المعاني فيقول : «فنوره سبحانه وتعالى غامض على ، ويريد أن يوضحه لي ، هل تعرف الطاقة ؟ هى فتحة كفتحة الشباك ، ولكنها مسدودة ، وفي الريف يضعون فيها المصباح ، فالمشكاة ضيقة ، وفيها المصباح ، وهى حيز ضيق، فإذا وضعنا المصباح في حيز ضيق أصبح نوره أشد وأشمل ، وهذا المصباح غير عادي ؛ لأنه في زجاجة والزجاجة حجزت الهواء ، وصفت النور ، وعكست الأشعة ، والزجاجة ليست عادية ، فهي في صفائها ونقائهامثل الكوكب الدري ، أي هى مضيئة بذاتها ، والمصباح يوقد من زيت الزيتون ، والزيتون معتدل المزاج ، فلا هو شرقي ولا غربي ، بل يأخذ حد الوسط ، فألوان الطيف التي يحتوي عليها الضوء سبعة : ثلاثة على اليمين ، وثلاثة على الشمال ، وواحد في الوسط وهو الأخضر ، وهو الذي منه أشعة (ليزر) هذا مثل النور ، وليس هو النور

(١) تفسير الرازي - ٢٣/ ٢٣٢، ٢٣٣ بتصرف .
(٢) في ظلال القرآن - ٤/ ٢٥٢٠.

يوجد في الحيز الضيق مع هذه المواصفات في المصباح مع أنه في مشكاة وفي زجاجة ، ومن كون الزجاجة كالكوكب الدري ، ومن أنه يوقد بزيت لا شرقي ولا غربي ، أيطلق في الحيز الضيق ، كذلك نور الله في السموات والأرض ، تضيق السموات والأرض عنه ، كما تضيق المشكاة بذلك المصباح ، هذا مثل نور الله ، وليس هو نور الله [1].

كل هذا يؤيد أنه مثل ضرب لنور الله . « يهدي الله لنوره من يشاء» فالله يهدي من يفتح قلبه للإيمان ، ويتطلعون إلى هذا النور فيرونه «فهو شائع في السموات والأرض ، فائض في السموات والأرض . دائم في السموات والأرض لا ينقطع ولا يحتبس ولا يخبو. فحيثما توجه القلب إليه رآه ، وحيثما تطلع إليه الحائر هداه ، وحيثما اتصل به وجد الله » [2].

« ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم» فهذا مثل محسوس ضربه الله لهداه ، وجعل المثل وسيلة لتقريبه إلى المدارك وهو العليم بما يصلح خلقه وينفعهم في معاشهم ومعادهم .

فكما أن الإنسان يستطيع الرؤية بوضوح بواسطة هذا النور الذي له الشأن الذي من صفته كيت وكيت فلا يصطدم بالأشياء لأنه يراها بوضوح ، ويميز بين هذا وذاك ، كذلك نور الله - ولله المثل الأعلى -

---

(١) الأمثال في القرآن للشعراوي - ١٣- ٢٤.
(٢) في ظلال القرآن - ٤/ ٢٥٢٠.

فإنه ينير درب الحياة لمن تبعه ، فلا يضل في مسالك الحياة ولا يزيغ لأن النور أضاء له معالم الطريق وكشفها حتى لا يقع في المحظور .

ومن هنا كان المثل الحسي لتصوير النور المعنوي ، وهو نور الهداية، وتوضيحه للناس حتى يستجيبوا لهدى السماء ، فلا يعيشوا في الظلام. وإن كانت الشمس طالعة .

فدقة التصوير وجمال التعبير ، وإبراز الملامح الأساسية من الصورة التمثيلية إضافة إلى الملامح البيئية جعله قريبًا إلى الأفهام في لغة دقيقة نزلت على العرب بلسانهم ، فكانت أقرب إلى نفوسهم ، وأكثر تأثيرًا فيهم ، وهذا من أسرار الإعجاز القرآني في الأمثال القرآنية .

المثل الثاني

وفيه ترغيب للنبي محمد - ﷺ - بالصبر على الابتلاء فيما يناله من الكفار، من إيذاء وتكذيب واتهام وافتراء، مما تضيق به الصدور، فقد ابتلى كثير من الأنبياء، فليس هو بدعًا في ذلك، فهذا نبي الله داود - صلوات الله وسلامه عليهم جميعًا - ابتلى كما ابتلى غيره من الأنبياء، وتعرض للفتنة والاختبار، ولذلك بدأت الآيات بقوله تعالى: ﴿ اصبر على ما يقولون، واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب ﴾، فكانت عين الله عليه لترعاه وكانت يد الله تجبره وتسدد خطاه.

يقول الله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ (٢١) إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ (٢٢) إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ (٢٣) قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾[1].

ذكر المفسرون في هذا الصدد قصة من الإسرائيليات التي لا يصح نسبتها للأنبياء لأنهم في العقيدة الإسلامية معصومون، وكل من يقرأ ما روى عن أهل الكتاب دون سند أو تمحيص يصاب بالغثيان !!! كيف

(١) ص: ٢١- ٢٤.

تصح نسبة هذه الافتراءات إلى نفر من صالحي المؤمنين، ناهيك عن نبي من أنبياء الله - صلوات ربي وسلامه عليهم أجمعين - والأولى أن يقتصر على مجرد تلاوة هذه القصة، وأن يرد علمها إلى الله عز وجل، لأن القرآن حق وما تضمن فهو حق أيضًا، وقد رد العلماء هذه الروايات بردود مقنعة[1].

والاستفهام في قوله تعالى: « وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب » للتعجب وتشويق السامع إلى ما يلقى إليه، كما تقول لجليسك هل تعلم ما وقع اليوم « تريد تشويقه لسماع كلامك »[2]. والمقصود: هل تعرف يا محمد خبر الابتلاء الذي ابتلى نبي من أنبياء الله هو داود حين قسم وقته؟-قال ابن عباس: إن داود - عليه السلام - جزأ زمانه أربعة أجزاء: يومًا للعبادة، ويومًا للقضاء، ويومًا للاشتغال بخواص أموره، ويومًا يجمع بني إسرائيل فيعظهم ويبكيهم، فجاءوه في غير يوم القضاء، ففزع منهم، ولأنهم نزلوا عليه من فوق وفي يوم الاحتجاب، والحرس حوله لا يتركون من يدخل عليه »[3]. وقال الزمخشري: «ظاهره الاستفهام، ومعناه الدلالة على أنه من الأنباء العجيبة التي حقها أن تشيع ولا تخفى على أحد، والتشويق إلى استماعه»[4].

والخصم مفرد، ولكنه في معنى الجمع يطلق على الواحد والجمع

(١) انظر مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٢٠٠، صفوة التفاسير للصابوني ٣/ ٥٤. في ظلال القرآن ٥/ ٣٠١٧، البحر المحيط ٧/ ٣٩٣، التفسير الكبير للفخر الرازي ٢٦ / ١٨٩ - الذي رد على هذه الآراء من عشرة وجوه.

(٢) صفوة التفاسير - ٣/ ٥٤.

(٣) الكشاف - ٣/ ٣٦٨.

(٤) الكشاف - ٣/ ٣٦٦، ٣٦٧.

﴿ هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المُكْرَمين ﴾ [1]. وهو المخاصم والمجادل والمنازع ، وفي التعبير القرآني بلاغة وإعجاز يشعر بهما من يقرأ قوله تعالى : « تسوروا المحراب » وما يشعر به ناطق الكلمة ، وهي بتركيبها وجرسها [illegible]حي بالصعود على السور ، ولكنه ليس صعوداً عادياً . والتعبير يدل على تكلف الصعود ، والمشقة فيه ، كيف وقد كان الحراس يحيطون به من كل جانب ؟ فتصعدوا [illegible] ، ون[illegible] له . والسور الحائط المرتفع – وهو في مكان [illegible] لا ينتظر دخول أحد عليه . والمحراب مكان العبادة ، أو صدر المجلس ، وأكرم موضع فيه . و[illegible] الإمام من المسجد ، والجمع محاريب ، مأخوذ من قولك : المكان الذي يحارب فيه الشيطان والنفس وما إلى ذلك .

وقوله تعالى : ﴿ إذ دخلوا على داود ، ففزع منهم ﴾ لأنهم دخلوا بغير إذن ، وليس من المدخل المعتاد وهو الباب ، فتسوروا السور ، ولأنه لم يشعر بهما إلا وهما جالسان بين يديه ، في يوم الاحتجاب والحرس يحيطون به من كل ناحية ، وهذا ليس من سمة المؤمنين أصحاب الخلق فكيف يكون ذلك من مؤمن ، لابد أنهما يريدان شراً ، أو يدبران أمراً ، ومن هنا كان الفزع والخوف منهم ، فأسرعا يطمئنانه : « قالوا : لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض » لا تفزع ولا تتوجس شراً إن كنا قد دخلنا من غير المكان المحدد للدخول ، فنحن جئنا في حاجة للتقاضي في أمر بغى فيه بعضنا على بعض .

(١) الذاريات – ٢٤.

« فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط ، واهدنا إلى سواء الصراط » ولا تجر في الحكم ،ولا تجازو الحد ، وتتخطى الحق المعروف الذي عرفه الله للناس فعرفوه ، فأصبح ميزاناً للأمور بينهم ، و« سواء الصراط » وسطه ومحجته ، ضربه مثلاً لعين الحق ومحجته » [1] ، أي الحق الواضح الذي يرضى الله ، ثم عرض أحدهما قضيته ، فقال : « إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ، ولي نعجة واحدة فقال : أكفلنيها وعزني في الخطاب».

« أخي » المراد أخوة الدين ، أو أخوة الصداقة والألفة ، أو أخوة الشركة والخلطة ، لقوله : « وإن كثيراً من الخلطاء » وكل واحدة من هذه الأخوات تدلي بحق مانع من الاعتداء والظلم [2] . فتمنع الظلم والاعتداء ، وتوجب التناصر والمواساة

« له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة » الأولى حملها على الظاهر ؛ لأن الروايات التي صرفتها عن ظاهرها روايات إسرائيلية «شنشنة تعرف من أخزم » في تشويه صورة الأنبياء ، وهم عندنا معصومون ، عن سعيد بن المسيب أن علي بن أبي طالب قال : « من حدثكم قصة داود كما يرويها القصاص جلدته مائة وستين حد الفرية مضاعفا ، روى أن عمر بن عبد العزيز حدثه رجل بذلك بحضرة عالم محقق ، فكذب الحديث بذلك ، وقال : إن كانت القصة على ما في كتاب الله فالتماس خلافها فرية ، وإن كانت على ما ذكرت وكف الله

(١) الكشاف – ٣/ ٣٦٨.
(٢) السابق – ٣٦٩.

عنها ستراً لنبيه - عليه السلام - فما ينبغي لك إظهار ما ستره الله تعالى. فقال عمر بن عبد العزيز : استماعي هذا الكلام أحب إليّ مما طلعت عليه الشمس »[1]، ونحن نؤيده في ذلك ، ونفرح بهذا الستر الجميل - أسبغه الله على الجميع ، فحمل النعاج على الظاهر أولى وأجمل ، والأمر لا يحتمل كل هذه التمحلات ، فعرض أحدهما خصومته : إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة - على الحقيقة ، ولي نعجة واحدة ، فقال : أكفلنيها ، أي اجعلها تحت كفالتي وضمها إلى نعاجي ، «وعزني في الخطاب » غلبني في الحجاج والمجادلة ، فأراد صاحبه تتمة المائة ، فطمع في نعجة خليطه ، وأراده على الخروج من ملكها إليه ، وحاجه في ذلك محاجة حريص على بلوغ مراده[2]، أو شدد على في القول وأغلظ لي . ولأنه إن تكلم فهو أبين مني ، وإن بطش كان أشد مني .

وإلى هنا والقضية تحمل ظلماً صارخًا دفع نبي الله داود - ﷺ - إلى القضاء دون أن يسمع للخصم الآخر ، أو يطلب حجة أو بينة . وكان واجب القاضي أن يسمع للطرفين مهما كانت المظلمة . ومهما كانت دعوى المدعي .

فتوجه نبي الله للحكم قائلا : « قال . لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه ، وإن كثيراً من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم » ، وأكد حكمه بجواب قسم

(١) الكشاف - ٣/ ٣٦٧.
(٢) السابق - ٣٦٩.

محذوف « لقد ظلمك بسؤال نعجتة إلى نعاجه » ويروى أنه قال أريد أن آخذها منه وأكمل نعاجي مائة ، فقال داود : إن رمت ذلك ضربنا منك هذا وهذا ، وأشار إلى طرف الأنف والجبهة ، فقال : يا داود أنت أحق أن يضرب منك هذا وهذا ، وأنت فعلت كيت وكيت ، ثم نظر داود فلم ير أحداً ، فعرف ما وقع فيه »[1].

ويبرر وجودهذا الظلم ، وهو أن الخلطة أو الشركة مظنة حدوث ذلك « وإن كثيراً من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم » فهكذا شأن الخلطاء إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ورغم قلتهم لا يحدث منهم ذلك فأراد « أن يكره إليهم الظلم والاعتداء الذي عليه أكثرهم مع التأسف على حالهم ، وأن يسلي المظلوم عما جرى عليه من خليطه ، وأن له في أكثر الخلطاء أسوة»[2].

وفي قوله : « وقليل ما هم » ما للإبهام ، وفيه تعجب من قلة هؤلاء المؤمنين الذين لا يبغون على خلطائهم « ويبدو أنه عند هذه المرحلة اختفى عنه الرجلان ، فقد كانا ملكين جاءا للامتحان ، امتحان النبي الملك الذي ولاه الله أمر الناس ، ليقضي بينهم بالحق والعدل ، وليتبين الحق قبل إصدار الحكم ، وقد اختار أن يعرضا عليه القضية في صورة صارخة مثيرة ، ولكن القاضي عليه ألا يستثار ، وعليه ألا يتعجل ، وعليه ألا يأخذ بظاهر قول واحد ، قبل أن يمنح الآخر فرصة للإدلاء بقوله

(١) الكشاف - ٣/ ٣٧٠.
(٢) السابق - ٣/ ٣٧١.

وحجته ، فقد يتغير وجه المسألة كله أو بعضه . وينكشف أن ذلك الظاهر كان خادعًا أو كان كاذبًا أو ناقصًا »[1]. وعندما اختفى الخصمان أدرك داود أن هذا ابتلاء « وظن داود أنما فتناه » ، وظن هنا بمعنى علم ، يقول الزمخشري : « لما كان الظن الغالب يداني العلم استعير له ، ومعناه علم داود وأيقن »[2]. أنما فتناه بهذه الحادثة وتلك الحكومة ، أو بغيرها مما ذكره الباحثون من آراء مقبولة ، ومنها : « أن تكون (الفتنة) أن داود حجب نفسه عن الناس ، والواجب على القاضي أن يعد نفسه للقضاء دائما ، ولا يضع بينه وبين المتخاصمين حجابًا ، وذلك مما أدى بالمتخاصمين إلى تسور المحراب ، ثم قال : وقيل قضاؤه بين الخصمين بعد أن سمع حجة أحدهما ، وقبل أن يسمع حجة الآخر ، وقيل إن فتنته كانت في استشعاره الملك والسلطة ، فراى فى ذلك فتنة واختار له من الله ، فخاف من الوقوع في الجور والظلم شأن كثير من الحكام »[3]. ومنها أيضًا : « أن المتسورين للمحراب عندما اقتحموا عليه مكان عبادته ظن أنهم جاءوا لقتله ، فلما عرف أنهم جاءوا للتقاضي ندم على ظنه . فكانت زلته ، ثم أشار إلى رأي آخر ، وهو أن المتسورين عندما دخلوا المحراب أرادوا أن يقتلوه فوجدوا عنده أقوامًا، فتصنعوا التقاضي فعلم غرضهم ، فأراد أن ينتقم منهم ، فظن ذلك ابتلاء من الله أيغضب لنفسه أم يعفو ؟ »[4]، ولكن التعقيب في الآية حدد نوع الفتنة، وهو طريقة

(١) في ظلال القرآن - ٥/ ٣٠١٨ .
(٢) الكشاف - ٣/ ٣٧١.
(٣) مع الأنبياء في القرآن / عفيف عبد الفتاح طبارة - ٢٨٠ بتصرف .
(٤) أضواء على مشكلات من أخبار الأنبياء / مصطفى الحديد الطير - ٨٦ - ٩٥.

التقاضي بسماع دعوى المدعي ، وبينة المدعى عليه ، حتى يزن الأمور بميزان الحق .

« فاستغفر ربه ، وخر راكعًا وأناب » وعلم وتأكد أن هذه الفتنة اختبار وابتلاء من الله ، أي طلب المغفرة من الله وخر ساجدًا لله تعالى ، وعبر بالراكع عن الساجد لأنه ينحني ويخضع كالساجد ، ورجع لله بالتوبة والندم على ما فرط منه ، ومن رعاية الله له أنه نبهه عند أول الفتنة، وهو بطبيعته أواب ، فآب إلى الله فتقبل منه .

« فغفرنا له ذلك ، وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب » أي فتبنا عليه، وقبلنا توبته ، وتنصله مما جرى من باب ما يقال : « حسنات الأبرار سيئات المقربين » فقربنا منزلته ، وزدناه كرامة، وحسن مرجع في الآخرة، ومما يؤيد ما ذكرناه أن « التعقيب القرآني الذي جاء بعد القصة يكشف كذلك عن طبيعة الفتنة ، ويحدد التوجيه المقصود بها من الله لعبده الذي ولاه القضاء والحكم بين الناس:« يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله، إن الذين يضلون عن سبيل الله،لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب» ، فهي الخلافة في الأرض،والحكم بين الناس بالحق ، وعدم اتباع الهوى ، واتباع الهوى فيما يختص بنبي هو السير مع الانفعال الأول ، وعدم التريث والتثبت والتبين ،مما ينتهي الاستطراد فيه إلى الضلال عن سبيل الله،وهو نسيان الله والتعرض للعذاب الشديد يوم الحساب »[1].

(١) في ظلال القرآن - ٥/ ٣٠١٨.

وهكذا كانت الآيات التي ضرب في أثنائها المثل الذي ضربه الله لنبيه - ﷺ - بنبي الله داود - عليهم جميعًا صلوات الله وسلامه - الذي اختبره ربه وابتلاه أيًا كان لون الابتلاء - وكانت عناية الله ورعايته وتوفيقه وسداده تحوطه وترعاه ، وأنت كذلك يا محمد - ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾ [1]، والآيات التي بدأت كما سبق أن أشرنا بقوله : ﴿اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ﴾ [2].

فالمثل في مقام الأسوة والاقتداء ، فاقتد يا محمد بهؤلاء ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾[3]، وصدق الله : ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾[4] في أسلوب بلغ غاية الروعة في التصوير والتعبير في نمط قصصي جميل جذاب . اتضحت فيه معاني العبرة في ضرب المثل ، وكل ذلك من إعجاز القرآن العظيم ، ومن بلاغة التصوير في المثل القرآني .

---

(١) الأحقاف - ٣٥ .
(٢) ص - ١٧ .
(٣) الأنعام - ٩٠ .
(٤) فصلت - ٤٣.

وفيه ترهيب من عدم الوفاء بالوعد خاصًا كان أم عامًا لأنه يعتبر صدًا عن سبيل الله ، قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [1].

فقد نهى عز وجل المؤمنين أن يتخذوا أيمانهم وسيلة للغش والخداع والمكر ، ولذلك كرر النهي إظهارًا لعظم ما يرتكب منه وتأكيدًا ومبالغة في شأن العهود عند كثير من الناس طمعًا في متاع الدنيا الزائل ، ولايدرون عاقبة هذا العمل ، والدخل : الدغل والخديعة والغش ، قال أبو عبيدة : كل أمر لم يكن صحيحًا فهو دخل .

والأيمان : جمع يمين ، وهي العهود ، والمراد بالأيمان : « أيمان مخصوصة أقدموا عليها ، فلهذا المعنى قال المفسرون : المراد من هذه الآية نهي الذين بايعوا رسول الله - ﷺ - عن نقض عهده لأن هذا الوعيد .. لا يليق بنقض عهد قبله ، وإنما يليق بنقض عهد رسول الله -ﷺ- على الإيمان به وشرائعه » [2]، وهذا يتفق مع ما ذكره الزمخشري : «كان قوم ممن أسلم بمكة زين لهم الشيطان لجزعهم مما رأوا من غلبة قريش واستضعافهم المسلمين وإيذائهم لهم ،ولما كانوا يعدونهم ويمنونهم، إن رجعوا من المواعيد أن ينقضوا ما بايعوا

---

(١) النحل - ٩٤ .
(٢) تفسير الرازي - ٢٠/ ١١٠.

عليه رسول الله -ﷺ- فثبتهم الله »[1].

وفي قوله : ﴿ فتزل قدم بعد ثبوتها ﴾ أي فتزل أقدامكم عن طريق الاستقامة ، وعن محجة الحق الواضح بعد ثباتها ورسوخها ، قال ابن كثير : مثل لمن كان على الاستقامة فحاد عنها ، وزل عن طريق الهدى بسبب الأيمان الحانثة المشتملة على الصد عن سبيل الله ، لأن الكافر إذا رأى أن المؤمن قد عاهده ثم غدر به ، لم يبق له وثوق بالدين ، فيصد بسببه عن الدخول في الإسلام ولهذا قال : « وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله ، ولكم عذاب عظيم »[2] ، والعرب تقول لكل مبتلى بعد عافية أوساقط بعد ورطة : زلت قدمه ، كقول الشاعر :

سيمنع منك السبق إن كنت سابقًا وتفتل إن زلت بك القدمان

ويقال لمن أخطأ في شيء : زل فيه ، ثم أشار إلى أن هذا الوعيد فيمن نقض عهد الرسول الكريم »[3]. وذلل القدم صورة حسية صورها المثل لمن كان على الحق الواضح والجادة المستقيمة ، فقد شبه رسوخ القدم وثباتها للرسوخ في الدين والتمكن منه والقيام عليه ، لأن الثبات يظهر في القدم ، ولما كان الزلل عن الحق يشبه الزلل الحسي للقدم ، وانزلاقها عبر عن الانزلاق الحسي لأنه أكثر وضوحًا للانزلاق عن محجة الإسلام والحق الواضح ،فإن من نقض عهود الإسلام التي عاهد

(١) الكشاف - ٢/ ٤٢٧.
(٢) مختصر تفسير ابن كثير ٢/ ٣٤٥.
(٣) تفسير القرطبي - ١٠/ ١٧٢.

ربه عليها ، وعهد رسول الله - ﷺ - فقد سقط من علٍ ، ووقع في تيه الضلالة متخذا الأيمان وسيلة توصله إلى مآربه الدنيوية الوقتية « واتخاذ الأيمان غشًا وخداعًا يزعزع العقيدة في الضمير ، ويشوه صورتها في ضمائر الآخرين ، فالذي يقسم وهو يعلم أنه خادع في قسمه لا يمكن أن تثبت له عقيدة ، ولا أن تثبت له قدم على صراطها ، وهو في الوقت ذاته يشوه صورة العقيده عند من يقسم لهم ثم ينكث ، ويعلمون أن أقسامه للغش والدخل ، ومن ثم يصدهم عن سبيل الله بهذا المثل السيء الذي يضربه للمؤمنين بالله ، ولقد دخلت في الإسلام جماعات وشعوب بسبب مارأوا من وفاء المسلمين بعهدهم ، ومن صدقهم في وعدهم . ومن إخلاصهم في إيمانهم ، ومن نظافتهم في معاملاتهم ، فكان الكسب أضخم بكثير من الخسارة الوقتية الظاهرة التي نشأت عن تمسكهم بعهودهم»[1].

وهكذا نهى المسملين عن الصد عن سبيل الله وتوعدهم أن يذوقوا السوء في الدنيا ، والعذاب في الآخرة بنقضهم العهود ، واتخاذهم الأيمان وسيلة إلى ذلك فتهتز الصورة ، ويضطرب الميزان عند غير المسلمين ، فيكون هذا صدًا عن سبيل الله ، وجاء المثل فصور تلك الحركة الحسية وهى زلل القدم لشبيهتها المعنوية للزلل عن الصراط القويم الذي هدى إليه في صورة تجعل المشاهد يشفق ويحرص على صاحب هذه الزلة وهو يشاهد القدم وهى تزل وصاحبها وهو ينزلق

(١) في ظلال القرآن - ٤/ ٢١٩٢.

ويميل حتى يكاد يسقط في نار جهنم بعذابها العظيم .

إنه التصوير القرآني الذي صور هذا المشهد المعنوي في ذلك المشهد المنظور والذي لا يملك المشاهد له إلا أن يمد يده إشفاقًا وخوفًا على من زلت قدمه ليمد إليه يد المساعدة حتى يقيمه على الصراط المستقيم والحجة الواضحة التي هوعليها مرة أخرى لإبعاده عن سوء المصير في الدنيا والآخرة و ما هو بمستطيع .

المثل الرابع

وفي هذا المثل بيان لطريق الجنة من الإيمان والجهاد والصبر والثبات حال وصفة السابقين من أهل الجنة من الأمم السابقة من الرسل وأتباعهم توجيهًا وإرشادًا من تجارب السابقين لتربية المؤمنين حاملي شرعه ومنهجه كما في قوله تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾[1] .

وفي أسباب النزول يقول الواحدي : « نزلت هذه الآية في غزوة الخندق حين أصاب المسلمين ما أصابهم من الجهد والشدة »[2] ، وقيل إن الرسول - ﷺ - قال ذلك لما قال الذين معه متى نصر الله ؟ »[3] ، ويقول أيضا : « يحتمل أن يكون هذا جوابًا للذين قالوا متى نصر الله ؟ وأن يكون إخبارًا مستأنفًا »[4] ، وقد بدأ بقوله : « أم » وهي منقطعة ، ومعنى الهمزة فيها للتقرير وإنكار الحسبان واستبعاده »[5] ، أي لا تحسبوا ولا تظنوا أن دخول الجنة دون حصول مثل السابقين فليس الطريق إلى الجنة مفروشًا بالورود والرياحين حسبما يظنون فلابد من المحن ، « ولما » فيها معنى التوقع ، أي لم يأتكم المثل ، وقد يأتي فيما بعد ، فإتيانه متوقع . وهي في النفي نظيرة قد في الإثبات[6] ، و« مثل الذين خلوا » أي مَثَلُ

---

(١) البقرة - ٢١٤.
(٢) أسباب النزول للواحدي - ٤٠.
(٣) التسهيل للغرناطي ١/ ١٣٨.
(٤) السابق .
(٥) الكشاف - ١/ ١٢٩.
(٦) السابق .

مثلهم وحالهم العجيبة ، فالكلام على حذف مضاف ، و« الذين » صفة لمحذوف أي المؤمنين « ومن قبلكم » متعلق « بخلو » وهو كالتأكيد لما يفهم منه[1]، فلماذا عبر عنه بالمثل ؟ والجواب عبر عنه بالمثل لأنه في شدته يضرب به المثل »[2] ثم بين المثل ووضحه بقوله : « مستهم » المس اللمس باليد ، فكأن البأساء والضراء صورت إنسانًا له يد يلمس بها الناس والأشياء أو يصيبها بالأذى ، و« البأساء » المشقة والشدة أو الحرب الشديدة ، و« الضراء » الشدة ، وكل حالة تضر ، و« زلزلوا » أزعجوا أزعاجا شديدًا شبيها بالزلزلة بما أصابهم من الأهوال والأفزاع»[3] التي سلطت عليهم حتى نفد صبرهم جميعًا الرسول - ﷺ - والذين آمنوا معه ، وكلمة « زلزلوا» توحي بتشتت الفكر وتوزع الخاطر ، وعدم الثبات على حال وانهيار عام في كل القدرات وشلل في الأفكار ، وهذا يوضح مدى ما أصابهم حتى نفذ صبر الأتباع ، بل والرسول -ﷺ- فقالوا : متى نصر الله ؟، وهى حكاية حال ماضية محكية أيضًا حتى قال الرسول أي:بلغ بهم الضجر مبلغه ، ولم يبق لهم صبر حتى ضجوا، كأن ذلك الغاية في الشدة التي لا مطمح وراءها [4]، وهذا يدل على أن المحن فوق الوصف .

« ألا إن نصر الله قريب » ألا أداة استفتاح على إرادة القول : يعني

(١) روح المعاني للألوسي ٢/ ١٠٤.
(٢) التسهيل لعلوم التنزيل للغرناطي - ١/ ١٣٨ .
(٣) الكشاف ١/ ١٢٩.
(٤) الكشاف ١/ ١٢٩.

فقيل لهم ذلك إجابة على طلبتهم من عاجل النصر [1]، والنصر لا يعطى لكل من طلبه أو تمناه ، إنما يعطى لمن يدفع الثمن ، ومن يستحق النصر ، « إنه مدخر لمن يستحقونه ، ولن يستحقه إلا الذين يثبتون حتى النهاية ، الذين يثبتون على البأساء والضراء ، الذين يصمدون للزلزلة ، الذين لا يحنون رؤوسهم للعاصفة ، الذين يستيقنون أن لا نصر الا نصر الله ،وعندما يشاء الله ، وحتى حين تبلغ المحنة ذروتها ، فهم سنطمع فحسب إلى نصر الله ، بهذا يدخل المؤمنون الجنة مستحقين لها جديرين بها بعد الجهاد والامتحان ، والصبر والثبات والتجرد لله وحده والشعور به وحده . وإغفال كل ما سواه ومن سواه »[2]، بهذا الصهر في بوتقة المحن يكون المؤمنون أهلاً للنصر والابتلاء ، فالمحن والشدائد هى التي تصفي المؤمنين من الشوائب وتعمقهم عمقًا إيمانيا وبعد نظر وفراسة بهم يكونون قادة للناس ، فالواجب عليهم ألا يهربوا منها ، أو يكرهوها فالمنح بعد المحن ، وما هى إلا لحظات حتى تتحول الدفة ، ويثقل الميزان لصالح هذه الفئة المؤمنة التي يدخل الناس على يديها في دين الله أفواجًا، ويكونون أهلاً لدخول الجنة .

صور المثل هذه المعاني جميعها في أسلوب جذاب بلغ قمة الإعجاز ، في التعبير والتصوير وكانت كل كلمة لبنة من لبناته ترسم صورة من الصور الكثيرة التي تتكامل وتنضام مع بعضها ليرسم الجميع في النهاية لوحة لهذا المشهد التربوي البالغ الحد في التأثير والتوجيه والتربية إنه كلام الله المعجز .

(١) الكشاف ١/ ١٢٩.
(٢) في ظلال القرآن - ١/ ٢١٩.

وفيه ترغيب في الاتحاد والاعتصام بحبل الله وعدم الالتفات إلى دواعي الفرقة والاختلاف في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ (١٠٠) وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٠١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٢) وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (١)

فقد جاء في سبب نزول الآيات هذه ما قاله ابن إسحاق: مرَّ شاس بن قيس، وكان شيخًا يهوديًا قد عسا عظيم الكفر شديد الضغن على المسلمين شديد الحسد لهم - على نفر من أصحاب رسول الله - ﷺ - من الأوس والخزرج في مجلس قد جمعهم يتحدثون فيها فغاظه ما رأى من ألفتهم وجماعتهم، وصلاح ذات بينهم على الإسلام، بعد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهلية، فقال: قد اجتمع ملأ بني قيلة بهذه البلاد، لا والله مالنا معهم إذا اجتمع ملؤهم بها من قرار، فأمر فتى شابًا من يهود كان معه، فقال: اعمد إليهم فاجلس معهم، ثم اذكر يوم «بعاث» وما كان قبله، وأنشدهم بعض ما كانوا تقاولوا فيه من

(١) آل عمران - ١٠٠ - ١٠٣.

الأشعار، ففعل فتكلم القوم عند ذلك، وتنازعوا وتفاخروا حتى تواثب رجلان من الحيين على الركب فتقاولا، ثم قال أحدهما لصاحبه: «إن شئتم رددناها جزعة - يعني الاستعداد لإحياء الحرب الأهلية التي كانت بينهم، وغضب الفريقان جميعًا، وقالوا قد فعلنا، موعدكم الظاهرة (الحرة) السلاح السلاح، فخرجوا إليها (وكادت تنشب الحرب) فبلغ ذلك رسول الله - ﷺ - فخرج إليهم فيمن معه من أصحابه المهاجرين، حتى جاءهم، فقال: يا معشر المسلمين الله!! الله!! أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم، بعد أن هداكم الله للإسلام وأكرمكم به، وقطع عنكم أمر الجاهلية، واستنقذكم من الكفر، وألف بين قلوبكم؟ فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان، وكيد من عدوهم، فبكوا وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضًا، ثم انصرفوا مع رسول الله - ﷺ - سامعين مطيعين، فقد أطفأ الله عنهم كيد عدو الله شاس بن قيس». وفي ذلك نزلت الآيات السابقة.

فالآيات بما فيها من مثل دعوة للمؤمنين للاعتصام بحبل الله وعدم التفرق والحذر من أعداء الله الذين يقلقهم، ويقض من مضاجعهم أن يتفق المسلمون بعد اختلاف، ويجتمعوا بعد تفرق.

ومن معالم الإعجاز في التعبير القرآني قوله تعالى: ﴿فألف بين قلوبكم﴾، ولم يقل بين أجسادكم إشارة إلى أن القلوب مجامع الأضغان والأحقاد الجاهلية، وكانت متنافرة كالإبل الشاردة بسبب قيم

(١) السيرة النبوية لابن هشام - ١/ ٥٥٥، ٥٥٦، صفوة السيرة المحمدية للباقوري ١٢٢-١٢٤، أسباب النزول للسيوطي على هامش الجلالين - ١٤٨.

الجاهلية وتصوراتها ، فألف الله بين هذه القلوب تحت راية الإسلام التي لو أنفق رسول الله - ﷺ - ما في الأرض جميعًا ما ألف بين قلوبهم ، ولكن الله ألف بينهم ، وهذا من مِنَنِ الله التي لا تعد ولا تحصى ، «ويذكرهم كذلك نعمته عليهم في إنقاذهم من النار التي كانوا على وشك أن يقعوا فيها ، إنقاذهم من من النار بهدايتهم إلى الاعتصام بحبل الله (الركيزة الأولى) ، وبالتأليف بين قلوبهم فأصبحوا بنعمته إخوانًا (الركيزة الثانية) ، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ، والنص القرآني يعمد إلى مكمن المشاعر والروابط القلب ، فلا يقول : فألف بينكم ، إنما ينفذ إلى المكمن العميق : « فألف بين قلوبكم » فيصور القلوب حزمة مؤلفة متآلفة بيد الله وعلى عهده وميثاقه »[1] ، ولا شك أن التأليف بين القلوب أكبر منة بعد نعمة الإسلام .

ثم تطرق إلي الحادثة التي كادت تودي بوحدتهم وتعصف بأخوتهم ، وأشار إليها مصورة بصورة واضحة تبهر العقل والوجدان وتحذر العاقل الذي تأخذه الشفقة على هذا المصير المحتوم ، الذي يصير إليه كل من لا يعتصم بحبل الله « على أن مدلول الآية أوسع مدى من هذه الحادثة ، فهي تشي مع ما قبلها في السياق وما بعدها - بأنه كانت هناك حركة دائبة من اليهود لتمزيق الصف المسلم في المدينة ، وإثارة الفتنة والفرقة بكل الوسائل والتحذيرات القرآنية المتوالية من إطاعة أهل الكتاب ،ومن الاستماع لكيدهم ودسهم ، ومن التفرق كما تفرقوا ، هذه

(١) في ظلال القرآن ١/ ٤٤٣.

التحذيرات تشي بشدة ما كانت تلقاه الجماعة المسلمة من كيد اليهود في المدينة ، ومن بذرهم لبذور الشقاق والشك والبلبلة باستمرار ، وهو دأب يهود في كل زمان ، وهو عملها اليوم وغدًا في الصف المسلم في كل مكان »[1]. من هنا كان التحذير ، وكان المثل لتوضيح الأمر بتصويره بصورة قوم اجتمعوا على شفا (طرف وحافة) حفرة ، وكادوا بسبب اختلافهم وتنازعهم أن يسقطوا في هذه الحفرة المؤججة بالنار ، أو أنهم بسبب كفرهم قبل الإسلام كانوا على وشك السقوط في النار ، يقول الفخر الرازي : « إنهم لو ماتوا على الكفر لوقعوا في النار ، فمثلت حياتهم التي يتوقع بعدها الوقوع في النار بالقعود على حرفها »[2]. ويقول صاحب المنار : « أي كنتم كذلك بوثنيتكم وشرككم بالله تعالى ، وما يتبعه من الخرافات والمفاسد ، فهي التي أطفأت نور الفطرة ، وهبطت بالأرواح إلى درك سافل ، حتي كانت كأنها على طرف حفرة يوشك أن تنهار بها في النار ، فشفا الحفرة أو البئر (طرفها) ، وبه يضرب المثل في القرب من الهلاك ، قال الراغب : ومنه أشفى على الهلاك ، أي حصل على شفاه ، وليس بين المشرك والهلاك في النار إلا الموت ، والموت أقرب غائب ينتظر ، فما أعظم مِنَّةَ الله تعالى على المؤمنين الصادقين ، لاسيما الأولين الذين خوطبوا بهذه الآية »[3]. فلكي يتفق ما في هذين التفسيرين وسبب النزول لابد أن يكون المراد بالكفر الاختلاف والتنازع لأنهما يوديان إليه ، وهو ما نراه ، وقد امتن الله على رسوله بذلك :

(٢) تفسيره - ٨/ ١٦٥.
(٣) تفسير المنار / محمد رشيد رضا - ٤/ ٢٢ط دار المعرفة بيروت .

﴿ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ (٦٢) وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [1]، والرسول -ﷺ- امتن عليهم بالأمرين معًا ، « يوم قسم غنائم حنين ، فعتب من عتب منهم بما فضل عليهم في القسمة بما أراده الله ، فخطبهم ، فقال : «يا معشر الأنصار ألم أجدكم ضلالاً فهداكم الله بي ، وكنتم متفرقين فألفكم الله بي !! وعالة فأغناكم الله بي ! فكلما قال شيئًا ، قالوا الله ورسوله أمن»[2] فسواء كان المقصود الكفر أم التنازع والاختلاف الذي يؤديان إليه ، فقد صور الحالة المعنوية من الاختلاف والتنازع بسبب الفتنة بصورة جماعة يقفون على حافة حفرة من جهنم متأججة نارًا يكادون يسقطون بسبب ما هم فيه من خلاف وتنازع أو كفر حسب الرواية الأخيرة ، الحاصل أنهم يوشكون على السقوط لولا انقاذ الله لهم بأن مد إليهم حبلاً ليعتصموا يتمسكوا به لينقذهم من الوقوع الأكيد في النار ، « كذلك يرسم النص صورة لما كانوا فيه ، بل مشهدًا حيًا متحركًا تتحرك معه القلوب ﴿ وكنتم على شفا حفرة من النار ﴾ وبينما حركة السقوط في الحفرة متوقعة إذا بالقلوب ترى يد الله وهي تدرك وتنقذ ، وجبل الله وهو يمتد ويعصم ، وصورة النجاة والخلاص بعد الحظر والترقب ، وهو مشهد حي تتبعه القلوب واجفة خائفة ، وتكاد العيون تتملاه من وراء الأجيال » [3].

وذكرهم بأخوة الإسلام الرابطة المقدسة التي تربط بينهم ، «وما كان الإسلام وحده يجمع بين القلوب المتنافرة ، وما كان إلا حبل الله الذي

(١) الأنفال - ٦٣ .
(٢) مختصر تفسير ابن كثير - ١/ ٣٠٦.
(٣) في ظلال القرآن - ١/ ٤٤٣.

يعتصم به الجميع ، فيصبحون بنعمة الله إخوانًا ، وما يمكن أن يجمع القلوب إلا أخوة في الله تصغر إلى جانبها الأحقاد التاريخية والثارات القبلية والأطماع الشخصية ، والرايات العنصرية ويتجمع الصف تحت راية الكبير المتعال » [1].

ومن معالم الإعجاز في التعبير القرآني تصوير القرآن حبلاً يمتد إليهم فيرى الرائي جماعة يكادون يسقطون في حفرة تشتعل وتتأجج نارًا ، وهم مشغولون بخلافاتهم ونزاعاتهم ويد الله تمتد إليهم بحبل ، وهم يمسكون به ، ويعتصمون به ، يمنة ويسرة ويتعلقون به أملاً في نجاتهم .

وهكذا نرى هذا التعبير القرآني المعجز الذي حول المعاني المجردة إلى مشاهد حية متحركة ترى فيها عوامل التأثير والإبهار للمتلقي ، وهو يلحظ هذه الحركات في التأليف بين القلوب المتنافرة الشاردة ، فإذا بها متآخية متآلفة بعيدة عن رجس الجاهلية ، وعن تقاليدها التي تورث الإحن والحزازات ، ثم لوحة أخرى داخل المشهد ، جماعة من الناس متنازعة متقاتلة مشغولة بما يدور بينها غافلة عما يدور حولها ، وعما يدبر لها من مكائد ، وبلغ من انشغالهم بالعداوة أنهم لم ينظروا إلى ما تحت أقدامهم حتى كادوا يسقطون في حفرة متأججة نارًا ، لولا أن امتدت إليهم يد القدرة الإلهية بحبل فتذكروا ما كانوا فيه ، وما صاروا إليه ، وعرفوا أنها نزعة من الشيطان وكيد من كيد اليهود ، فاعتصموا بهذا الحبل وتمسكوا به فكان سببا في نجاتهم .

كل هذا والقارئ أو السامع تحول إلى مشاهد ينظر ويبصر ، فيأخذ العبرة مبهورًا متأثرًا بجلال التعبير والتصوير القرآني في الأمثال القرآنية .

(١) السابق - ١/ ٤٤٢.

المثل السادس

وفي هذا المثل ترغيب بالصفات السامية للصحابة - رضوان الله عليهم- بضرب المثل لهم في قوله تعالى : ﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٢٩) ﴾ (١).

ففي هذا المثل يكرم الله تعالى رسوله ومن آمن معه بدلالة الآية السابقة في قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا (٢٨) ﴾(٢) يكرمهم بذكر الصفات الطيبة التي يتمنى كل عاقل أن يحوزها ، كما يرفعهم إلى مصاف جنده المخلصين الذين ينتقم الله بهم من الكفار فيغيظهم بهم ، كل ذلك في أسلوب معجز بلغ القمة في الوضوح والبيان في صور منتقاة مختارة بدقة وعناية متابعة جدٌ لا هزلَ فيها ، ترفع مكانتهم عند الله وعند الناس، هذه الصور لقطات تتكامل فيما بينها لترسم مشهداً ساميًا مرادًا به التكريم ، فعندما يبدأ المثل بالملمح الأول بذكر صفة - الرسول - له - ﷺ - التي أنكرها سهيل بن عمرو ، ومن وراءه من المشركين في صلح الحديبية ، فإذا كان الله قد اعترف لرسوله - ﷺ - وأكرمه بالرسالة فلا يهم ما ومن بعد ذلك .

والملمح الثاني : في المثل ذكر المعية للصحابة مع الرسول - ﷺ -

(١) الفتح - ٢٩. (٢) الفتح - ٢٨.

فهذا شرف دونه كل شُرف ، أن تكون في معيته وأن تلتف حوله ، وأن تنال شرف صحبته - ﷺ - فخر ما بعده فخر ، هذا بعض ما توحي به كلمة « معه » .

الملمح الثالث من معالم الإعجاز القرآني في التعبير كلمتا « أشداء، ورحماء » وما يحملان من معنيين متقابلين ، « من دقة في الوصف ، وحس نفسي قوي ، تنقل نفسية أصحاب الرسول وعلاقة بعضهم البعض ، فهم في ذلك « رحماء» بصيغة « فعلاء» وما تحمله لفظة رحماء من جرس قوي مملوء رحمة وتعاطفًا وألفة وأخوة»(١) والمد في الكلمة بما يحمل في إشباعه من استيفاء معاني الرحمة المعقب بحرف الهمزة التي تدل على الانقطاع بما فيها من انفجار في جهاز النطق توحي بشحنة قوية من المعنى دفعها القارئ بما يشبه القذيفة فحملت معان كثيرة من الرحمة وصلت بهم إلى حد كما يقول الحسن - رضي الله عنه- «بلغ من تشددهم على الكفار أنهم كانوا يتحرزون من ثيابهم أن تلزق بثيابهم . ومن أبدانهم أن تمس أبدانهم ، وبلغ من ترحمهم فيما بينهم أنه كان لا يرى مؤمن مؤمنًا إلا صافحه وعانقه»(٢). كما « تنقل لفظة «أشداء » وهي تحمل نفسًا شديدًا في صيغتها وحروفها ونطقها وقوة في جرسها وصلابة في معناها ، تنقل لنا في الوقت نفسه صورة حية لصلابة نفس الرسول - ﷺ - والصحابة رضوان الله عليهم - وشدة موقفهم الموحد أمام أعدائهم ، إنهم « رحماء وأشداء طبيعيون في ذلك ، فهم لم يكونوا « رحماء وأشداء » إلا بحق وبحكم ما تقتضيه كلمة التقوى التي تجمع بين أرواحهم وقوة صلتهم بربهم »(٣) فكلمة أشداء بما فيها من حرف الشين

(١) الإعجاز الفني في القرآن / عمر السلامي - ٧٩. (٢) الكشاف - ٣/ ٥٥٠.
(٣) الإعجاز الفني في القرآن / عمر السلامي - ٧٩.

وما يحمل من شدة وتفشي والدال المشددة بحبسها للنفس ومع بدئها بهمزة وختامها بهمزة ، وهما صوتان انفجاريان يخرجان من بين الوترين الصوتيين أول جهاز النطق ولا يظهران إلا عند انفتاحه مرة واحدة بعد انغلاق بما يشبه الانفجار ، كل هذا التكوين الصوتي بما فيه من شدة وتفشي وحبس النفس وانفجار الهمزة في الأول والآخر يدل على ما تحمله الكلمة من معان تليق بالكفار ، حتى قال الزمخشري : «ومن حق المسلمين في كل زمان أن يراعوا هذا التشدد ، وهذا التعطف، فيتشددوا على من ليس على ملتهم ودنيهم ويتحامسوه ، ويعاشروا إخوتهم في الإسلام متعطفين بالبر والصلة وكف الأذى والمعونة والاحتمال والأخلاق السجيحة» [1]. فهذا هو الملمح الثالث من المشهد الكبير الذي رسمه المثل ، وهو الذي صور حالتهم مع الكفار ومع أنفسهم ، فهم أشداء علي الكفار ، وفيهم آباؤهم وإخوانهم وذوو قرابتهم وصحابتهم ، ولكنهم قطعوا هذه الوشائج جميعًا « رحماء بينهم» وهم فقط أخوة دين، فهي الشدة لله والرحمة لله ، وهي الحمية للعقيدة ، والسماحة للعقيدة ، فليس لهم في أنفسهم ، ولا لأنفسهم فيهم شيء ، وهم يقيمون عواطفهم ومشاعرهم ، كما يقيمون سلوكهم وروابطهم على أساس عقيدتهم وحدها ، يشتدون على أعدائهم فيها ، ويلينون لأخوتهم فيها ، قد تجردوا من الأنانية ومن الهوى ومن الانفعال لغير الله . والوشيجة التي تربطهم بالله» [2].

(١) الكشاف - ٣/ ٥٥٠.
(٢) في ظلال القرآن - ٦/ ٣٣٣٢.

والملمح الرابع . « تراهم ركعًا سجدًا» على وزن (فُعَّل) جمع راكع وساجد جمع تكسير ، ونقول هنا : لماذا لم يجمعهما جمعًا سالمًا (راكعين ساجدين) بدلاً من جمع التكسير (ركعًا سجدًا) ؟ والجواب: أن جمع التكسير يراعى فيه العدد ، أما الجمع السالم فمراعى فيه الصفة . فعندما يصفهم بالتكسير دون السالم فإنه يلمح إلى كثرة العدد ، سواء عدد الراكعين أو الساجدين أو عدد مرات الركوع والسجود ، فيكون المراد : تراهم كثيري الركوع والسجود أو ترى كثيرًا منهم ركعًا سجدًا ، وهذا مما يدل على حبهم للركوع والسجود ، ودوامهم على ذلك وتفانيهم فيه كأنما هم من فرط حبهم وكثرة ركوعهم وسجودهم صاروا ركعًا وسجدًا دائمًا على حد قول الخنساء :

ترتع ما غفلت حتى إذا ادكرت

فإنما هي إقبال وإدبار

والراكع هو العائر من الدواب[1] ، هذا المعنى الحسي للفظة : (راكع) يعطي « لركع وسجد » صفة التضحية بالنفس في حب خالقها ، فمن كثرة الركوع والسجود يلتقي في معنى العثور بالمغزى العميق ، فكأن بالرسول - ﷺ - والصحابة - رضي الله عنهم - داء العثور الناتج عن كثرة الركوع والسجود ، وهذا كناية عن شدة حبهم للركوع والسجود» [2]، فلا تراهم إلا ركعًا سجدًا « وإرادة التكريم واضحة ،

(١) مجاز القرآن لأبي عبيدة - ١/ ٥٤.
(٢) الإعجاز الفني في القرآن / عمر السلامي - ٨٠.

وهو يختار من هيئاتهم وحالاتهم هيئة الركوع والسجود ، وحالة العبادة: « تراهم ركعًا سجدًا » والتعبير يوحي كأنما هذه هي هيئتهم الدائمة التي يراها الرائي حيثما رآهم، ذلك أن هيئة الركوع والسجود تمثل حالة العبادة ، وهي الحالة الأصلية لهم في حقيقة نفوسهم ، فعبر عنها تعبيراً يثبتها كذلك في زمانهم ، حتى لكأنهم يقضون زمانهم مكله ركعًا سجدًا»[1] .

والملمح الخامس : « يبتغون فضلاً من الله ورضوانًا » عبر بالفعل المضارع بما يفيده من التجدد والحدوث واستحضار صورة الماضي ، فهم في كل حركاتهم وسكناتهم يبتغون فضلاً من الله ورضوانا فهم لم يتكبروا على الناس بصلاتهم وركوعهم وسجدوهم « إنما أتقبل الصلاة ممن تواضع بها لعظمتي ولم يستطل بها على خلقي » .

والملمح السادس : في قوله تعالى : ﴿ يبتغون فضلا من الله ورضوانا ﴾ في كل ما يأتون وما يتركون وهو ملمح من الملامح العامة ، « ولكنها لبواطن نفوسهم وأعماق سرائرهم ... فهذه صورة مشاعرهم الدائمة الثابتة ، كل ما يشغل بالهم ، وكل ما تتطلع إليه أشواقهم هو فضل الله ورضوانه ولا شيء وراء الفضل والرضوان يتطلعون إليه ويشتغلون به »[2] .

والملمح السابع : « سيماهم في وجوههم من أثر السجود »

(١)في ظلال القرآن - ٦ / ٣٣٣٢.
(٢)السابق .

علامتهم في وجوههم من أثر السجود ، فما المقصود بأثر السجود ؟ هل المراد به السمة التي تحدث في جبهة السجاد من كثرة السجود ؟والجواب: لا ؛ لقوله - ﷺ - : « لا تعلبوا صوركم » وعن ابن عمر - رضي الله عنه - أنه رأى رجلاً قد أثر في وجهه السجود ، فقال : إن صورة وجهك أنفك فلا تعلب وجهك ولا تشن صورتك » .. وعن بعض المتقدمين : كنا نصلي فلا يرى بين أعيننا شيء ، ونرى أحدنا الآن يصلي فيرى بين عينيه ركبة البعير ، فما ندري أثقلت الأرؤس أم خشنت الأرض ؟ »[3] . فهذا كله يؤيد: أن ليس المقصود بها الثفنات التي كثفنات البعير من كثرة السجود ، وإنما المراد بها : صفرة الوجه وذبوله ، « قال الضحاك : صفرة الوجوه ، وعن سعيد بن المسيب : ندى الطهور وتراب الأرض،وعن عطاء- رحمه الله -استنارت وجوههم من كثرة ما صلوا بالليل ، لقوله: من كثرْ صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار»[4]، وهذا ملمح « يثبت أثر العبادة الظاهرة والتطلع المضمر في ملامحهم ونضحها على سماتهم .. سيماهم في وجوههم من الإضاءة والإشراق والصفاء والشفافية ومن ذبول العبادة الحي والوضيء اللطيف ، وليست هذه السيما هي النكتة المعروفة في الوجه كما يتبادر إلى الذهن عند سماع قوله : « من أثر السجود » فالمقصود بأثر السجود هو أثر العبادة ، واختار لفظ السجود لأنه يمثل حالة الخشوع والخضوع والعبودية لله في أكمل صورها ، فهو

(١)الكشاف - ٣/ ٥٥١ .
(٢) السابق .
(٣) الكشاف - ٣/ ٥٥١.
(٤) الكشاف - ٣/ ٥٥١.

أثر الخشوع ، أثر في ملامح الوجه حيث تتوارى الخيلاء والكبرياء والفراهة ، ويحل مكانها التواضع النبيل والشفافية الصافية والوضاءة الهادئة ، والذبول الخفيف الذي يزيد وجه المؤمن وضاءة وصباحة ونبلاً[1] ، وبهذا يكون النور الذي يرى على وجه المتقين والصالحين ليس علامة سوداء تشين الوجه ، بل هو نضرة التقوى والصلاح . والذبول والفتور الذي يعقب الصلاة والتهجد الكثير الذي يترك أثره على ملامح الإنسان وسماته ، فهو موسوم بسيم الإسلام وسحنته وسمته وخشوعه .

هذا هو المثل الأول بملامحه الأساسية التي حددت معالم هذا الجيل الفريد التي ذكرت منذ القدم في التوراة ، وبشر بها موسى - عليه السلام- قبل أن يظهر هؤلاء على وجه البسيطة ، « ذلك مثلهم في التوراة » إلى هنا وتم الكلام ، ثم ابتدأ قوله : ﴿ ومثلهم في الإنجيل كزرع ﴾ وقيل : إن مثلهم في الإنجيل عطف على مثلهم في التوراة ، ثم ابتدأ قوله « كزرع » والأول أظهر ليكون وصفهم في التوراة بما تقدم من الأوصاف الحسان ، وتمثيلهم في الإنجيل بالزرع المذكور بعد ذلك ، وعلى هذا يكون مثلهم في الإنجيل بمعنى التشبيه والتمثيل ، وعلى القول الآخر يكون المثل بمعنى الوصف كمثلهم في الإنجيل »[2] ، و« قال الفراء: فيه وجهان : إن شئت قلت المعنى ذلك مثلهم في التوراة والإنجيل أيضا كمثلهم في القرآن ، فيكون الوقف على الإنجيل ، وإن شئت قلت تمام الكلام : ذلك مثلهم في التوراة ثم ابتدأ فقال : ومثلهم في الإنجيل

(١) في ظلال القرآن - ٦/ ٣٣٣٢. (٢) تفسير الغرناطي - ٤/ ١٠١.

وكذا قال ابن عباس وغيره ، هما : مثلان : أحدهما في التوراة ، والآخر في الإنجيل ، فيوقف على هذا على التوراة ، وقال مجاهد : هو مثل واحد : يعني أن هذه صفتهم في التوراة والإنجيل ، فلا يوقف على التوراة على هذا ، ويوقف على الإنجيل ، ويبتدئ « كزرع أخرج شطأه) على معنى وهم كزرع »[1] ، ونرى أن هناك مثلين : الأول مثل التوراة ، وعليه فيوقف عليها، والمثل الثاني : ومثلهم في الإنجيل ، مثلهم : أي وصفهم العجيب الشأن في الكتابين جميعًا الجاري في الغرابة مجرى الأمثال .

والمثل الثاني فيه عدة ملامح وأطوار أو مراحل نامية تبدأ بمحمد -ﷺ- ومن معه، إنهم كزرع أخرج شطأه (أشطأ الزرع إذا فرّخ) أي أخرج فراخه أي النباتات الصغيرة التي تخرج بجانب الزرع من نوعه وجنسه ، وهذا دليل على قوته وخصوبته ، فآزره ، فأعانه وقواه على النمو ، حتى استغلظ أي صار غليظ الجذر والساق والأوراق حتى استوى على سوقه مستقيمًا قويًا سويًا فصار سارًا لأهله وأصحابه وأصدقائه بل وأعدائه وكارهيه على السواء ، الكل يشهد بكماله وجماله والإعجاب به ، أما عن أثر ذلك على الكفار فهو الغيظ والألم « ليغيظ بهم الكفار » وهذا دليل على ربانية الجماعة المسلمة « وصورة للزرع يشبه به محمدًا والذين معه فماذ ترى في هذا الزرع ؟ إنه لا يصبح هشيمًا مطلقًا ، ولا تذروه الرياح أبدًا ، إنه ليخيل إليك أنه نابت هنا في مكانه ، قار في منبته ، خالد في موضعه ، ومدة العرض هنا دائمة ،

(١) تفسير القرطبي - ١٦/ ٢٩٤ وما بعدها .

والمنظر ثابت حتى تتحول عنه العين ، ولا يتحول هو عن العين ، وذلك هو الهدف المقصود ، وهذا الثبات طريقة من طرق التطويل ، ومن الدقائق اللطيفة هنا أن الصورة العامة تسير على طريقة الإطالة كما أسلفنا ، ولكن الأجزاء الأولى منها تتم في صورة متعاقبة (كزرع أخرج شطأه)،فـ(آزره) ، فـ(استغلظ) فـ(استوى على سوقه) ، فقد تم الغلظ والاستواء في مدى قصير ، ثم ثبت بعد ذلك وقَرَّ ، إن الإسراع الأول مقصود كالاستقرار الأخير في تصوير حال المسلمين ، يتم نموهم ، ثم يستقر وضعهم أبداً»[1].

وقال الغرناطي : « هذا مثل ضربه الله للإسلام حيث بدأ ضعيفًا ثم قوى وظهر ، وقيل الزرع مثل النبي - ﷺ - ؛ لأنه بعث وحده ، وكان بالزرع حبة واحدة ، ثم كثر المسلمون فهم كالشطء ، وهو فراخ السنبلة التي تنبت حول الأصل .. وقيل قوله كزرع - يعني النبي - ﷺ - أخرج شطأه) بأبي بكر ، فآزره) بعمر (فاستغلظ بعثمان (فاستوى على سوقه) بعلي بن أبي طالب (ليغيظ بهم الكفار) تعليل لما دل عليه المثل المتقدم من قوة المسلمين فهو يتعلق بفعل دل عليه الكلام تقديره جعلهم الله كذلك ليغيظ بهم الكفار ، .. ثم يذكر لطيفة فيها رد على المبغضين للصحابة -رضوان الله عليهم - فيقول : إن (من) في (منهم) لبيان الجنس لا للتبعيض ، لأنه وعدهم جميعًا - رضي الله عنه »[2]، وقال مجاهد : « وهذا مثل ضربه الله تعالى لأصحاب النبي - ﷺ - يعني

(١) التصوير الفني في القرآن / سيد قطب - ١١٠، ١١١.
(٢) تفسير الغرناطي - ٤/ ١٠١/ ١٠٢.

أنهم يكونون قليلاً ثم يزدادون ويكثرون ، فكان النبي - ﷺ - حين بدأ الدعاء إلى دينه ضعيفًا ، فأجابه الواحد بعد الواحد ، حتى قوى أمره، كالزرع يبدو بعد البذر ضعيفًا ، فيقوى حالاً بعد حال حتى يغلظ نباته وأفراخه ، فكان هذا المثل من أصح مثل ، وقال قتادة : مثل أصحاب محمد - ﷺ - في الإنجيل مكتوب أنه سيخرج قوم ينبتون نبات الزرع يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر .. كانوا قليلاً فكثروا وضعفاء فقووا، قاله الضحاك وغيره »[1].

ومن معالم الإعجاز في لفظة المثل القرآني استخدام حرف الفاء التي تفيد الترتيب والتعقيب لتدل على سرعة تعاقب هذه الأطوار طوراً بعد طور لتكميل الصورة مما يدل على القوة وسرعة النماء وشدة الخصوبة ، وتدل أيضًا على أنهم ضعاف فقوى أمرهم بدخولهم الإسلام واحداً بعد الآخر ، وتدل على أنها صورة حية نامية متحركة ، وللحركة أثرها في المشهد والتأثير النفسي بالجذب والإبهار ويأتي التعقيب « وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيمًا » للدلالة على رضى الله عنهم ، وعلى عطائه لهم عطاء غير محدود ، وأنهم في رعاية الله وعونه ، وأنهم في المحل الأسمى بين البشر ، ومعاني كثيرة تتبادر إلى الذهن عند ملاحظة هذه الصورة وقراءة هذا المشهد ، وحسبهم هذا كله « وهم يتلقون هذا الفيض الإلهي من الرضى والتكريم والوعد العظيم ، وهم يرون أنفسهم هكذا في اعتبار الله وفي ميزان الله وفي

(١) تفسير القرطبي -١٦/ ٢٩٤، ٢٩٥ بتصرف .

كتاب الله »[1].

ومما يزيد الصورة لمعانًا وبريقًا وتلألؤًا المقابلات بين (أشداء رحماء) و(المؤمنون ، الكفار) و(ركعًا وسجدًا) ، وهكذا شاركت هذه الألفاظ بما تجود به من معانٍ وإيحاءات في رسم الصورة الكلية في تناسق تام بين الألفاظ والأطوار مما يعطي الصورة بل المشهد كله الوحدة والانسجام ، إنه قبس من التنزيل الذي بلغ القمة في الإعجاز .

(١) في ظلال القرآن - ٦/ ٣٣٣٣.

المثل السابع

وفيه ترغيب بالاقتداء بالنساء الصالحات حين سمون بأنفسهن وبإيمانهن على متاع الدنيا الزائف ، ولم يخفن أحدًا في الله تعالى، جاء قوله تعالى :﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١١) ومريم ابنت عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ (١٢) ﴾[1].

ضرب الله مثلاً بالنساء لما فيهن من ضعف، فيكن حجة على النساء ومن باب أولى على الرجال وضعف النساء ألوان منها : ضعف الجسد ، وضعف الإدراة إلى غير ذلك من ألوان الضعف التي تتفاوت وتختلف من واحدة لأخرى ، فالمرأة يستهويها متاع الحياة وهذه قد أحاطت بها الدنيا من كل ناحية تتمرد على هذا النعيم وتستعلي ، وتعتبره شرًا ودنسًا زائلاً ،والفراق بينهما واقع لا محالة من فراق أحدهما للآخر ، وملك غشوم ، يذعن له الجميع ، ويمجده ويتملقه ، فلا تخاف ولا تخشى ولا تمالئ ولا تنافق ، وإنما أعلنت عقيدتها صراحة،والمجتمع كله يصغى إلى كفره ، وهو يدعي الإلهية فتتبرأ منه ومن قومه، وترغب في جوار الله ، « وامرأة فرعون آسيا بنت مزاحم ، وقيل هى عمة موسى - عليه السلام- آمنت حين سمعت بتلقف عصا موسى الإفك ، فعذبها فرعون»[2]. وفرعون : لقب لكل من حكم مصر

(١) التحريم - ١١، ١٢.

(٢) الكشاف - ٤/ ١٣١.

في التاريخ القديم ، ولقب كل حاكم ، والجمع : فراعنة ، وفرعون هذا هو الذي ادعى الألوهية ، وأطاعه الجميع ، وأذعنوا له بالطاعة والولاء ومجدوه ، ثم نجد هنا حذفًا كبيرًا في التعبير السابق يفهم من خلال السياق ، وذلك أنها مؤمنة ، وأظهرت إيمانها ، وعلم فرعون بذلك ، فدعاها إلى عبادته كبقية شعبه فرفضت ، فنصب عليها جام عذابه ، فدعت ربها : رب ابن لي عندك بيتًا في الجنة ، « عن أبي هريرة - رضي الله عنه - » أن فرعون وتد امرأته بأربعة أوتاد ، واستقبل بها الشمس وأضجعها على ظهرها ، ووضع رحى على صدرها ، وقيل أمر بأن تلقى عليها صخرة عظيمة ، فدعت الله فرقى بروحها ، فألقيت الصخرة على جسد لا روح فيه ، وعن الحسن فنجاها الله أكرم نجاة ، فرفعها إلى الجنة ، فهي تأكل وتشرب وتتنعم فيها ، وقيل لما قالت : رب ابن لي عندك بيتًا في الجنة ، أريت بيتها في الجنة يبنى ، وقيل إنه من درة ، وقيل كانت تعذب في الشمس فتظلها الملائكة [1].

وقد دعت دعاء جمع بين ألوان كثيرة من المعاني الطيبة والأجر العظيم ، أولاً : طلبت الأجر من الله وطلبت جوار لله في جنته ، والنجاة من فرعون ، والبراءة من عمله ، ومن القوم الظالمين الذين هم أقباط مصر الذين أعانوه على فرعنته ، فلم تصغ لهؤلاء ولا لطغيانهم ، ولا لعذابهم لأن الإيمان تمكن في قلبها ، « وها هي ذي امرأة فرعون لم يصدها طوفان الكفر الذي تعيش فيه في قصر فرعون .. عن طلب النجاة

(١) الكشاف - ٤/ ١٣١.

وحدها .. وقد تبرأت من قصر فرعون طالبة إلى ربها بيتًا في الجنة ، وتبرأت من صلتها بفرعون فسألت ربها النجاة منه ، وتبرأت من عمله مخافة أن يلحقها من عمله شيء ، وهي الصق الناس به .. وتبرأت من قوم فرعون ، وهي تعيش بينهم .. ودعاء امرأة فرعون وموقفها مثل للاستعلاء على عرض الحياة الدنيا في أزهى صوره ، فقد كانت امرأة فرعون أعظم ملوك الأرض يومئذ ، في قصر فرعون أمتع مكان تجد فيه امرأة ما تشتهي .. ولكنها استعلت على هذا بالإيمان ، ولم تعرض عن هذا العرض فحسب ، بل اعتبرته شرًا ودنسًا وبلاء تستعيذ بالله منه ، وتتفلت من عقابيله ، وتطلب النجاة منه » [1]. وقد علق بعض العلماء على دعاء امرأة فرعون إذ قالت : رب ابن لي عندك بيتًا في الجنة « ما أحسن هذا الكلام فقد اختارت الجار قبل الدار ، فهي تطمع في جوار الله قبل طمعها في القصور » [2].

فهذه امرأة مؤمنة اتصلت بالكافر المتجبر الذي مارس سلطانه وطغيانه ،ومع ذلك لم يردها عن إيمانها ، بل لجأت إلى الله لحمايتها ، فلم يضرها شيئًا ، لأنها فراقته في كفره وعمله ،فمعصية الغير لا تضر المؤمن المطيع شيئًا في الآخرة ، وإن تضرر بها في الدنيا بسبب العقوبة البشرية التي لن تدوم ، فكانت مثلاً لكل مؤمن ومؤمنة ، لكي يثبت على إيمانه ولا يضره وضع الشريك أيًا كانت عقيدته .

(١) في ظلال القرآن - ٦/ ٣٦٢١، ٣٦٢٢.
(٢) مع أعلام المفسرين ٢٨/ ١٢٣.

أما بقية مثل المؤمنين فضرب بامرأة لا زوج لها من المؤمنين، ولا من الكافرين، هي مريم ابنة عمران يقول تعالى: ﴿ ومريم ابنت عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا، وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين ﴾.

إن لفظة: « أحصنت التي شملت إحصانًا كليًا من الحلال والحرام جميعًا والتي هي من (حصن) الدال على الحفظ والحياطة والحرز، ولذلك أطلق على المرأة الحاصن والحصان بمعنى المرأة المتعففة الحا[فظة] فرجها دقيقة في معناها »[1]، في الدلالة على حفظ الفرج عن مقارفة الفواحش، فهي عفيفة شريفة طاهرة، والدلالة بالفعل الماضي تدل على التحقق، وأن هذا أمر مضى وانتهى، فهو حقيقة ثابتة لا تقبل الانفكاك.

وقوله تعالى: ﴿ فنفخنا فيه من روحنا ﴾ أي فنفخ جبريل الذي أرسله الله في فتحة جيبها بأمر الله فوصل أثر ذلك إلى فرجها فحملت بعيسى - عليه السلام - بقدرة الله الذي يقول للشيء كن فيكون.

قال ابن كثير: « إن الله بعث جبريل فتمثل لها في صورة بشر، وأمر أن ينفخ بفيه في جيب درعها، فنزلت النفخة: فولجت في فرجها فكان منه الحمل بعيسى - عليه السلام - »[2]، وإضافة النفخ إلى الله، والروح كذلك إلى الله، فيه إيحاء بأن الأمر كله خاضع لقدرة الله، وضمير العظمة يوحي بذلك، فهو الذي أرسل جبريل - عليه السلام -

(1) الإعجاز الفني في القرآن / عمر السلامي - ٨٤.
(2) مختصر تفسير ابن كثير - ٣/ ٥٢٥.

لينفخ، والمنفوخ من روحه، فكانت كلمة الله التي تمثلت في المسيح بن مريم - عليه السلام- وكل ذلك في نطاق القدرة الإلهية.

وفي قوله تعالى: ﴿ وصدقت بكلمات ربها وكتبه ﴾ وهنا سؤال، وهو ما المقصود بكلماته وكتبه؟ « لا يجوز أن يراد بكلماته صحفه التي أنزلها على إدريس وغيره، سماها كلمات لقصرها، وبكتبه الكتب الأربعة »[1]، ويقول ابن جرير: « أي آمنت بعيسى، وهو كلمة الله، وكتبه يعني التوراة والإنجيل »[2]، وفسر الخازن الكتب بالكتب المنزلة على إبراهيم وموسى وداود وعيسى عليهم السلام - »[3].

وفي قوله تعالى: ﴿ وكانت من القانتين ﴾ ذكرها تغليبًا للذكور على الإناث، « والإشعار بأن طاعتها لم تقصر عن طاعة الرجال الكاملين حتى عدت من جملتهم أو من نسلهم فتكون من ابتدائية »[4] ولأن القنوت صفة تشمل كل من قنت من الجنسين، ومن هنا للتبعيض، ويجوز أن يكون لابتداء الغاية على أنها ولدت من القانتين؛ لأنها من أعقاب هارون أخي موسى - صلوات الله وسلامه عليهما -، وعن النبي - ﷺ -كمل الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا أربع: آسية بنت مزاحم امرأة فرعون، ومريم ابنة عمران، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام »[5].

(1) الكشاف - ٤/ ١٣٢.
(2) تفسير الطبري - ٢٨/ ١١٠.
(3) تفسير الخازن - ٤/ ٢٨٨.
(4) تفسير البيضاوي - ٥٧٥.
(5) صفوة التفاسير - ٣/ ٤١٣، الكشاف - ٤/ ١٣٣ بتصرف الحديث أخرجه البخاري ومسلم.

فأثنى عليها بكثرة الطاعة والعبادة والخشوع والكمال ، ومن هنا ضرب بها المثل في العفة والطهارة ولم يؤثر فيها ما رماها به اليهود الفجار من ارتكاب الفاحشة ، ولكنها بإيمانها وقفت أمام هذه العواصف، ولم تنحنِ لغير الله ، فكانت عالية المكانة ، ومثلاً لكل من أتى بعدها من المؤمنات خاصة عائشة الصديقة لأنها - رضي الله عنها - تعرضت لما تعرضت له السيدة مريم - رضي الله عنهما - ، « وفي ضرب المثل بمريم أيضًا اعتبارم آخر ، وهو أنه لم يضرها عند الله شيئًا ، قذف أعداء الله اليهود لها ، ونسبتهم إياها وابنها إلى ما برأهما الله منه ، مع كونها الصديقة ، المصطفاة على نساء العالمين ، فلا يضر الرجل الصالح قذف الفجار والفساق فيه ، في هذا تسلية لعائشة أم المؤمنين إن كانت السورة نزلت بعد قصة الإفك ، وتوطين نفسها على ما قال فيه الكذابون إن كانت قبلها ، فقد تضمن التسلية وتوطين النفس لمن أوذى منهن وكذب عليه »[1]، وجمع في التمثيل « بين التي لها زوج والتي لا زوج لها تسلية للأرامل وتطييبًا لأنفسهن »[2]، وقبل هذا التطييب جعل الله المسئولية فردية ، ولم يحمل أحدًا مسئولية آخر ، فقال تعالى : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾[3] فالتبيعة فردية لا تتأثر بصلاح الزوج أو فساده ، «وأصل القرآن أصلاً هامًا في حقوق المرأة حين قرر عدم تبيعة المرأة

(١) الأمثال في القرآن لابن القيم - ٢٦١ وما بعدها بتصرف ،أعلام الموقعين - ١/ ٢٠٦ بتصرف .
(٢) الكشاف - ٤/ ١٣٢.
(٣) الإسراء - ١٥.

للرجل في المسؤلية فكل منهما يتحمل تبعة عمله منفردًا عن الآخر ، فصلاح الزوج لا يعفي الزوجة الخائنة من مسئوليتها ، وكذلك فساده لا ينسحب عليها إن كانت صالحة »[1].

وهكذا صور المثل هذه المعاني في أسلوب رائع التصوير، وتعبير قوي الإيحاء ، مما جعل هذا الأسلوب قمة الإعجاز القرآني ، وبلغ في تصوير الأمر المعنوي بالحوادث المشخصة والتاريخية مبلغًا عظيمًا مما جعلها قصصًا تروى تحمل مغزىً طيبًا وهدفًا كريمًا ، فالحق ثابت لا يتغير بتغير الأشخاص ولا الزمان ، ولا المكان ،« وهذا الجزء قطعة حية من السيرة رسمها القرآن بأسلوبه الموحي ، لا تملك روايات البشر التاريخية عن تلك الفترة أن ترسمها ، فالتعبير القرآني أكثر إيحاء وأبعد آمادًا وهو يستخدم الحادثة المفردة لتصوير الحقيقة المجردة ، الباقية وراء الحادثة ووراء الزمان والمكان ... كما هو شأن القرآن »[2] في أسلوبه الخالد المعجز ، وهكذا كان أسلوب القرآن ودائمًا .

كل هذه المعاني حملها الأسلوب القرآني في الأمثال في بلاغة وإيجاز ، وفاضت بكل هذه المعاني ، في إعجاز من إعجاز القرآن الكريم.

(١) معجزة الأرقام والترقيم في القرآن د/ عبد الرازق نوفل - ٣٠.
(٢) في ظلال القرآن - ٦/ ٣٣٢٢.

أمثلة الإنفاق

بدأت الدولة الإسلامية بداية اقتصادية متواضعة ، فقد هاجر المسلمون تاركين كل ما يملكون ابتغاء مرضاة الله عن طيب خاطر ، ورفضوا أن يكونوا عالة ثقلاء على إخوانهم الأنصار الذين آثروهم على أنفسهم - رضي الله عنهم جميعًا - .

والاقتصاد أحد أعمدة الدولة التي يقوم عليها المجتمع الإسلامي ، فقد آخى الرسول -ﷺ- بين المسلمين مهاجرين وأنصار ليسد الفجوة بين الفريقين ، وليشد عرى المجتمع المسلم ، فنزلت الآيات تحض على الإنفاق ، وتشجع عليه بداية من قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[1] ، حائة مرة ومعدلة النهج والطريقة مرة ومحذرة أخرى وهكذا حتى استقام عود الأمة وصلب متنها ، وفاض المال حتى لم يقبله أحد ، كما أخبر المعصوم - ﷺ- .

ولأهمية المال في هذه الفترة الحرجة في بداية الدولة الإسلامية ، وفي كل العصور ، فأمثال القرآن لم تنزل للصحابة - رضي الله عنهم - فقط والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، فهي لكل زمان ومكان.

من هنا كانت هذه الأمثال حاضة على الإنفاق في سبيل الله ومرغبة فيه .

---

(١) المجادلة - ١٢.

المثل الثامن

وفيه حث على الإنفاق بالترغيب فيه ببيان ثواب الصدقة الذي يضاعفه الله إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ، يقول الله تعالى ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[1].

فالآية بدأت بالترغيب في الإنفاق ، ولم تلزم به ، ولا صرحت بفرضيته ، وإنما كما قال الشهيد / سيد قطب : « إن الدستور لا يبدأ بالفرض والتكليف ، إنما يبدأ بالحض والتأليف ، إنه يستحيش المشاعر والانفعالات الحية في الكيان الإنساني كله ، إنه يعرض صورة من صور الحياة النابضة النامية المعطية الواهبة ، صورة الزرع هبة الأرض أو هبة الله ، الزرع الذي يعطي أضعاف ما يأخذه ، ويهب غلاته مضاعفة بالقياس إلى بذوره يعرض هذه الصورة الموحية مثلاً للذين ينفقون أموالهم في سبيل الله »[2].

ومن أجل التآلف في التركيب لابد في الآية من إضمار ، «والتقدير مثل صدقات الذين ينفقون أموالهم كمثل حبة ، وقيل : مثل الذين ينفقون أموالهم كمثل زارع حبة»[3]، « والذي حملهم على هذا التقدير: أنه لا يصح جعل « كمثل حبة » خبرًا عن قوله تعالى : ﴿ مثل الذين

---

(١) البقرة - ٢٦١.
(٢) في ظلال القرآن - ١/ ٣٠٨.
(٣) تفسير الرازي - ٧/ ٤٤ بتصرف .

ينفقون ﴾ كما يقول الشوكاني ، وذلك لاختلافهما فلا بد من تقدير محذوف »[1] . كما سبق لسيتقيم المعنى بين المشبه والمشبه به ، ويقول ابن كثير : « هذا مثل ضربه الله لتضعيف الثواب لمن أنفق في سبيل الله ، وابتغاء مرضاته ، وأن الحسنة تضاعف أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، فقال : مثل الذين ينفقون أموالهم » ، ثم قال : وهذا المثل أبلغ في النفوس من ذكر عدد السبعمائة ، فإن هذا فيه إشارة إلى أن الأعمال الصالحة ينميها الله عز وجل لأصحابها كما ينمي الزرع لمن بذره في الأرض الطيبة »[2].

وإذا كان الإنفاق تطهيراً للمال ، ولنفس المنفق من الشح والبخل وعلاجًا لأمراض نفسية واجتماعية ودفعًا لمسيرة الجهاد ، وتقوية لأمة الإسلام ، فإن القرآن الكريم « يحدثنا عن طبيعة النفس الإنسانية ، وأنها كزة وحريصة بما طبعت عليه من خلال تحدث القرآن عنها فوصفها بالشح والبخل وحب المال ، فكيف نقنع مثل هذه النفس الحريصة البخيلة؟ يقول : فلابد من أجراس تصلصل لتقرع القلوب فتحيد بها عن الشح إلى الإنفاق ، ولن يكون ذلك إلا بمضاعفة الأجر المرتقب ليعلم الباذل المتصدق أن بره لم يضع هباءً ، بل وضع في متجر رابح يدر عليه أضعاف ما ينفق من مال ، وهنا يقوم التصوير البلاغي بتأثيره النفاذ ، إذ يتحدث عن مضاعفة الأجر حديثًا يدفع الشحيح إلى المسارعة في البر مسارعة من يضمن الربح الغانم والكسب الجزيل حين يستمع إلى قوله

(١) فتح القدير للشوكاني - ١/ ٢٨٤.
(٢) تفسيره - ١/ ٣١٧ط أولى دار الفكر .

تعالى : ﴿ مثل الذين ينفقون أموالهم .. إلى آخره﴾ لقد أخذت الحسنة تربو وتزيد حتى لتبلغ سبعمائة ، كما توضع الحبة في الأرض فتشقق عن عود يحمل سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة ، وهي بعد حبة واحدة ، ولكن الله يضاعف لمن يشاء ، فلا شك إذن في مكافأته الغالية ذات الغيث المدرار ، ثم وصح من يستحق هذه المكافأة ، وهم المخلصون الذين ابتعدوا عن التعالي بصدقتهم على الفقراء ، لا من جعلتهم يمنون عليهم أو جلبًا للثناء »[1] ، والمثل بتصويره كان له التأثير البالغ في النفوس ، أكثر مما لو ذكر العدد مجرداً ، فعندما يرى المتصدق هذه الصورة النامية الواعدة أمامه ويطالعها فإنها تفجؤه بالعجب والبهجة والسرور وهو يرى الحبة تنبت سبع سنابل ، والسنبلة حافلة بالحب على غير العادة ، فإن أساريره ستنفرج ، ويسمح بالصدقة والإنفاق في سبيل الله بعد حرص على المال ، وشح من النفس وضن به ، وكما قالوا : النفس لا يزحزحها عما هي عليه إلا شوق مبهج أو خوف مزعج ، ولا شك أن الشوق هنا زائد والفرح شديد بمضاعفة الأجر والثواب ، كما يرى ويشاهد ، فكان لذلك أثره في الإنفاق الذي نسمع عنه ونشاهده من المنفقين ، « وفي موكب الحياة النامية الواهبة يتجه بالضمير البشري إلى البذل والعطاء ، إنه لا يعطي بل يأخذ ، وإنه لا ينقص بل يزاد ، وتمضي موجة العطاء والنماء في طريقها ... تضاعف المشاعر التي استجاشها مشهد الزرع والحصيلة .. أن الله يضاعف لمن يشاء .. يضاعف بلا عدة

(١) البيان القرآني د/ محمد رجب البيومي - ٩٣ - ٩٥ .

ولا حساب يضاعف من رزقه الذي لا يعلم أحد حدوده ، ومن رحمته التي لا يعرف أحد مداها ، والله واسع عليم .. واسع لا يضيق عطاؤه ، ولا يكف ولا ينضب ، عليم بالنوايا ويثيب عليها ، ولا تخفى عليه خافية» [1].

ومن الترغيب في الإنفاق قوله تعالى : ﴿ في سبيل الله ﴾ . فالإنفاق كثير وله وجوه متعددة ، ولكن تحديد وجه الإنفاق هنا زاده شرفًا ورفعة ، أي إنه إنفاق في سبيل الله لوجه الله تعالى ، لا لغيره من أغراض الدنيا التافهة الحقيرة ، إنه إنفاق في سبيل الله ، وكفى به شرفًا وسموًا وفيه من الترغيب في الإنفاق ما فيه ، إنه ليس في وجه من وجوه الحرام ، أو في التفاهات إنه في سبيل الله .

وهنا استفسار مفاده ، « فإن قلت : فهل رأيت سنبلة فيها مائة حبة حتى يضرب المثل بها ؟ قلت : ذلك غير مستحيل ، وما لا يكون مستحيلاً فضرب المثل به جائز، وإن لم يوجد في كل سنبلة مائة حبة ، إن جعل الله ذلك فيها ، وقيل : هو موجود في الدخن »[2] ، أو يوجد ذلك في أخصب الأرض ، وأجود تربة ، وأحسن بذر ، ولا غرابة في ذلك ، فهذا القمح والأرز ينبت فيه هذا القدر » [3]، وليس المراد هذه المفردات الحرفية ، والوقوف عند تلك الدقائق والتفصيلات وإنما المراد في التمثيل مجرد تشبيه حال بحال ، حال الإنفاق المخلص فيه صاحبه المبتغي به وجه

(١) في ظلال القرآن - ١/ ٣٠٦.
(٢) تفسير الخازن - ١/ ١٩٣.
(٣) التفسير الواضح / حجازي - ٣/ ١٤.

الله في زكائه ونمائه ومضاعفة أجره وثوابه بحال حبة أنبتت سبع سنابل ، وفي كل سنبلة مائة حبة ، ويؤيد ذلك الشهاب حيث يقول : «وهو من تشبيه المعقول بالمحسوس ، وتقديره في جانب المشبه أو المشبه به لتحصل ملاءمة المشبه والمشبه به ، وإن كان التشبيه مركبًا لا ينظر فيه إلى المفردات » [1]، فهذا تصوير وتمثيل للمضاعفة والزيادة في الأجر لا يوقف فيها عند الجزئيات ، « فالمثل عندما يدعوا المسلمين إلى الإنفاق من المال ، وهو شقيق الروح وعصب الحياة ، ويوضح لهم أن هذا المال لن يضيع لإخراجه من حوزتهم ، وإنما سيزداد هذا المال وينمو ، فعلام الأثرة والشح والأنانية والبخل ؟ لقد كان الكرم سجية في العرب قبل الإسلام. ولكن في وجوه غير مشروعة ، ولكن الإسلام بما أودع الله فيه من سر الحياة والبقاء حول هذه العادة إلى ناحية الإنفاق المشروع ، فاستل من النفوس دخائلها الخبيثة ، وعالج أمراضها المستعصية ، وقصد من وراء ذلك أن يكون المجتمع الإسلامي كله مجمعًا موحداً ، وما فرق الناس إلا الشح والبخل ، وما باعد بينهم إلا التكالب والحرص ، فجاء هذا المثل تعبيراً حيًا محسوسًا ليدفع بالمسلم إلى الإنفاق » [2]، في تصوير جميل أخاذ منتزع من البيئة ومن الواقع المعاش .

والآية بتصويرها تخلب اللب وتدهش الوجدان ، فالقارئ أو السامع حينما يتأمل هذه الآية أو يفاجأ بها ، فإنه بهذا التصوير ، وهذه

(١) حاشية شهاب الدين الخفاجي - ٢/ ٣٤١ بتصرف .
(٢) موسوعة أمثال القرآن الكريم د. محمد عبد الوهاب عبد اللطيف - ١/ ٣٩٤.

الحركة السارة المفرحة حبة تنبت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة. يلاحظ هذا كله فلا يسعه إلا أن ينصاع لهذه التجربة أو يشارك فيها، وهذا هو مراد الآية، والغاية منها، ثم يزيد الخيال انفساحًا إلى المنطلق الواسع من الأجر والثواب بعبارة « والله يضاعف لمن يشاء » أي أن هنالا أضعافًا مضاعفة غير ما ذكر من العدد، وهذا متعلق بالمشيئة، فكلما أخلص العبد في الإنفاق كلما تضاعف الأجر، وكلما كان هنالا حيثيات كثيرة تدل على المشقة أو الإخلاص كلما زاد الأجر، والله يضاعف لمن يشاء، وعقب على ذلك بكلمتي واسع وعليم بما يدل عليه من القضايا المسلمة، وهو غناه الواسع الذي لا يضيق، وعلمه النافذ إلى كل شيء، وإلى ما تنطوي عليه الضمائر والمشاعر» [1]، « لأنه لولا وجود الإله المثيب المعاقب لكان الإنفاق في سائر الطاعات عبثًا»[2].

فمن هنا كان للترغيب أثره في الدفع إلى الإنفاق، ولجمال المثل الأدبي وإعجازه الفني ملك على النفس كل حواسها، وعلى منافذ الإدراك فسيطر عليها سيطرة المنبهر بجمال التعبير المأخوذ بروعة التصوير الذي يفعل فعل السحر في النفوس، وهذا من إعجاز المثل القرآني.

(١) الاشتراكية العربية في ضوء الإسلام / عبد الرحيم فوده - ٩٤.
(٢) تفسير الرازي - ٧/ ٤٤ بتصرف.

المثل التاسع

وفيه تهذيب للإنفاق بإبعاده عما يشينه مما يضيع ثوابه وأجره من منٍ أو أذى أو رياء « حيث تكررت الدعوة إلى الإنفاق في السورة فالآن يرسم السياق دستور الصدقة في تفصيل وإسهاب، يرسم الدستور مظللاً بظلال حبيبة أليفة ويبين آدابها النفسية والاجتماعية الآداب التي تحول الصدقة عملاً تهذيبيًا لنفس معطيها، وعملاً نافعًا مريحًا لآخذيها، وتحول المجتمع عن طريقها إلى أسرة يسودها التعاون والتكافل والتواد والتراحم، وترفع البشرية إلى مستوى كريم، المعطي والآخذ فيه على سواء »[1] من هنا كان هذا توجيه المثل في قول الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذي ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدًا لا يقدرون على شيء مما كسبوا والله لا يهدي القوم الكافرين﴾ [2].

في بداية المثل نداء للتنبيه ولفت الانتباه بحيثية الإيمان، وعندما ينادي المؤمن فإنه ينادي لأمر هام، يقول عبد الله بن مسعود وغيره من السلف- رضي الله عنهم -: « إذا سمعت الله تعالى يقول في القرآن: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ فارعها سمعك، فإنها خير يؤمر به أو شر ينهى عنه» [3]، وهنا نهى عن إبطال الصدقات، والنهي عن الشيء أمر بضده.

(١) في ظلال القرآن - ١/ ٣٠٤.
(٢) البقرة - ٢٦٤.
(٣) مختصر تفسير ابن كثير - ١/ ٤٢.

وإن لم يصرح به ، والإبطال فساد الشيء من الأصل وإزالته حقًا كان ذلك الشيء أو باطلاً [1]، فكأن المن والأذى يبطلان الزكاة والصدقة فلا أجر ولا ثواب فيهما ، ومن هنا اشترط الفقهاء ألا يعود على المزكي أو المتصدق منفعة أو فائدة من زكاته أو صدقته أيا كانت مادية أو معنوية حتى تكون الصدقة خالصة لوجه الله ، فالمان والمؤذي صدقتهما باطلة لأن « المن عنصر كريه لئيم ، وشعور خسيس واطٍ ، فالنفس البشرية لا تمن إلا بما أعطت إلا رغبة في الاستعلاء الكاذب أو رغبة في إذلال الآخذ ، أو رغبة في لفت أنظار الناس ، فالتوجه إذن للناس لا لله بالعطاء .. ولكنها مشاعر لا تجيش في قلب طيب ، ولا تخطر كذلك في قلب مؤمن .. فالمن - من ثم- يحيل الصدقة أذى للواهب وللآخذ سواء، أذى للواهب بما يثير في نفسه من كبر وخيلاء ، ورغبة في رؤية أخيه ذليلاً كسيراً لديه ، وبما يملأ قلبه بالنفاق والرياء والبعد من الله .. وأذى للآخذ بما يثير في نفسه من انكسار وانهزام ، ومن رد الفعل بالحقد والانتقام .. وما أراد الإسلام بالإنفاق مجرد سد الخلة ، وملء البطن وتلافي الحاجة ، كلا إنما أراده تهذيبًا وتزكية وتطهيراً لنفس المعطي ، واستجاشة لمشاعره الإنسانية ، وارتباطه بأخيه الفقير في الله وفي الإنسانية ، وتذكيراً له بنعمة الله عليه وعهده معه في هذه النعمة أن يأكل منها في غير سرف ولا مخيلة ، وأن ينفق منها « في سبيل الله » في غير منٍ ولا منٍ ، كما أراده ترضية وتندية لنفس الآخذ ، وتوثيقًا لصلته بأخيه

(١) الكليات - ٣٤ بتصرف .

في الله وفي الإنسانية ؛ وسدًا لخلة الجماعة كلها لتقوم على أساس من التكافل والتعاون يذكرها بوحدة قوامها ووحدة حياتها ووحدة اتجاهها ووحدة تكاليفها ، والمن يذهب بهذا كله ، ويحيل الإنفاق سمًا ونارًا ، فهو أذى وإن لم يصاحبه أذى آخر باليد أو باللسان ، هو أذى في ذاته يمحق الإنفاق ويمزق المجتمع ، ويثير السخائم والأحقاد »[1].

و« كالذي» تشمل المؤمن والكافر ، بل وكل من يحصل منه مفهوم جملة الصلة ، لأن اسم الموصول اسم مبهم توضح المراد منه جملة الصلة، وهي « ينفق ماله رئاء الناس ، ولا يؤمن بالله واليوم الآخر » فكل من يحدث منه ذلك ، وكل من ينطبق عليه هذا الوصف ، وهو أنه يرى الناس أنه ينفق ويتصدق قاصدًا وجه الله مع أنه غير ذلك ، ولا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر ولا يرجو ثوابًا ولا يخشى عقابًا هذا الصنف من الناس آفة المجتمعات في كل زمان ومكان فهو « مرض من أمراض المجتمع يدل على انهيار في الشخصية وجبن في الأخلاق وبعد عن الوضوح .. وها هو ذا القرآن عندما أوصى بتقديم الصدقة إلى مستحقيها، أوصى في الوقت نفسه بأن يحافظ المتصدق على شعور المستحق وإحساسه ، والإبقاء على كرامته وماء وجهه ، فلا تقدم الصدقة إليه مشفوعة بمنٍ أو مصحوبة بأذى عاجل أو آجل .. وإلا بطل ثوابها كما يبطل الرياء ثواب العمل »[2]. والذي يدفع المتصدق إلى الوقوع في

(١) في ظلال القرآن - ١/ ٣٠٧.
(٢) الأمثال في القرآن محمود بن الشريف - ٢٩٠.

هذا المستنقع الآسن الذي يبطل صدقته ، ويحبط علمه ، فهذا يدل على خبث في الطباع والتواء في القصد ، و« لقد علم الله من أمراض النفوس البشرية ما يدفعها إلى زلتين خطيرتين ، إذ تتعالى بصدقتها على الفقراء مباهاة وغطرسة ، فتندفع إلى المن المستعلي تارة ، وإلى التفاخر بالعطاء كسبًا للإعجاب الأرضي ، وجلبًا للتقدير البشري تارة أخرى ، مع أنها ما سمحت بالخير إلا بعد أن رأت وعود السماء بمضاعفة الأجر وإجزال المثوبة ، وكأنها لا تقنع بثواب الآخرة وحده حين تشرك بالله من تحرص على مراءاته فتنفق المال طمعًا في نباهة الذكر بين الناس أو تمن به إرضاء لنزعة استعلاء مقيت ، أجل لقد علم الله أمراض النفوس فحذر منها في تصوير أخاذ »[1] ؛ لتؤثر في النفوس المريضة فتستقيم على الجادة ، ولذلك قال تعالى : ﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴾[2].

هذا كلام مجرد واضح ، وفي المثل الذي معنا صورة جميلة معبرة عن هذا المشهد الجمالي الذي يظهر أثره هذه الآفة الأخلاقية وهي الرياء أو المن والأذى الناتج عنها ، والمن والأذى لن يأتيا بالأذى ، نعم « يعلل بعض الباحثين النفسيين أن رد الفعل الطبيعي في النفس البشرية هو العداء في يوم من الأيام لشعور الآخذ بالدونية والنقص أمام المعطي ، ويظل هذا الشعور يحز في نفسه ، فيحاول الاستعلاء عليه بالتجهم لصاحب الفضل عليه ، وإضمار العداوة له لأنه يشعر بضعفه ونقصه

(١) الإعجاز البياني د/ محمد رجب البيومي - ٩٥ .
(٢) البقرة - ٢٦٣ .

تجاهه، والمعطي يريد أن يرى فيه ذلك ، ويظل ملازمًا له حتى يتحول إلى عداء »[1].

ونتنقل إلى الصورة ، وأجزاؤها : صفوان - تراب - وابل ، وعبر «بصفوان » بدلا من حجر لأن مطلق الحجر لا يصور المعنى المراد كما يصوره الصفوان لإملاسه وصلابته وظهوره على حقيقته ، ومن تراب سريع الذوبان بفعل المطر الشديد المنهمر على الجلمود»[2]، فنعومة السطح وملاسته مبررات لعدم بقاء أي أثر للتراب عليه بعد غسله بالماء عندما ينزل عليه فلا يبقى عليه شيئا من التراب ، وكلمة صلدًا توحي بالخيبة وعدم النفع ، وكلمة« تراب » توحي الخصب والنماء أي أنها تربة صالحة للزراعة ، فيها خصوبة ، ويرجى منها خير ، ولكنها طبقة خفيفة تزول بمجرد نزول الماء عليها ليظهر خصبها ونباتها ، فإذا به يزول لأول لحظة من نزول الوابل عليه ويتعرى وتظهر الحقيقة ، صفوان صلد قاس كقلب المنافق أو الكافر الذي لا يبض بالإيمان ، « واختيار الصفوان في هذا الموقف مما يناسب الجو التصويري ، فكم بين البخيل الذي لا يجود ابتغاء مرضاة ربه ، بل طلبًا للزلفى الدنيوية ، وبين الحجر الصلد من مشابه في إمساك الخير وفقد الحس ، وموت الشعور ، إنك حين تريد أن تهجوه أعنف الهجاء لن تجد أبلغ من أن ترميه بقولك صفوان عليه تراب»[3] ،وكلمة « وابل » وهي المطر الشديد ، توحي بفساد الموضع

(١) في ظلال القرآن - ١/ ٣٠٧ بتصرف .
(٢) القرآن أحسن الحديث / خلف الحسيني -١٣٩.
(٩٣ الإعجاز البياني د/ محمد رجب البيومي - ٩٥، ٩٦ .

الذي سقط فيه المطر ، فمهما سقط من مطر ليغسل التربة ، ويزيل سوءها، ويرطبها لتنبت ، فلن تنبت شيئًا لفساده وسوئه ، فالأرض صخرية .

فقسوة القلب وصلادته ، وفقده بشاشة الإيمان ونداوته ، كل هذا أثر من آثار المن والإيذاء والمراءاة ، وضحها هذا المثل الذي فضح هؤلاء ووضح عاقبتهم ، يقول ابن القيم : « وتأمل أجزاء هذا المثل البليغ وانطباقها على أجزاء الممثل به ، تعرف عظمة القرآن وجلالته فإن الحجر في مقابلة قلب المرائي والمان والمؤذي فقلبه في قساوته عن الإيمان والإخلاص والإحسان بمنزلة الحجر ، والعمل الذي عمله لغير الله بمنزلة التراب الذي على ذلك الحجر .

فقسوة ما تحته وصلابته تمنعه من النبات والثبات عند نزول الوابل . فليس له مادة متصلة بالذي يقبل الماء وينبت الكلأ .

وكذلك قلب المرائي ليس له ثبات عند وابل الأمر والنهي . والقضاء والقدر ، فإذا نزل عليه وابل الوحي انكشف عنه ذلك التراب اليسير الذي كان عليه ، فبرز من تحته حجراً صلداً لا نبات فيه ، وهذا مثل ضربه الله لعمل المرائي ونفقته ،لا يقدر يوم القيامة على ثواب شيء منه أحوج ما كان إليه »[1] .

هكذا المان لا يقدر على شيء منه ولا ينتفع به كالمرائي في فقد

---

(1) الأمثال لابن القيم – ٢٥٧، ٢٥٨ تحقيق محمد سعيد نمر الخطيب .

الأجر وقت شدة الحاجة إليه ، وهذا منتهى الضياع والحسرة ، « فنجد القرآن قد مثل هذا المتصدق في محاق أجره ، وإحباط ثوابه بحجر عليه تراب نزل عليه المطر فمحا التراب ، وغسل الحجر مما عليه فأصبح نظيفًا، وهكذا المتصدق يصبح هو الآخر خلاء من كل ثواب وأجر لا يقدر على شيء مما كسب ، وينتهي التعبير عند هذا المعنى ، ويبقى الخيال شاخصًا أمام هذا المشهد يتملاه ، فيلمس الوجدان ويصل إلى أعماق النفس »[1] ، صورة الذي يبحث عن رصيد له كان مدخراً فلا يجده وقت الحاجة إليه ، البحث والحيرة والألم واللهاث الدائم كلها علامات لصاحب الصدقة الذي لم يتأدب بأدب إخراجها ، وهذا قمة الإعجاز في المثل القرآني أن يتركه في هذه الحال المؤسفة يجني جزاء سعيه .

---

(1) لمحات من الإعجاز البياني في القرآن الكريم / خليل محمد خليل – ٧٥ .

وفيه ترغيب في الإخلاص في الإنفاق ببيان أجر المخلصين الذين يبتغون بنفقتهم مرضاة الله عز وجل في قوله تعالى: ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٦٥) ﴾[1].

وهنا أيضًا كما في المثل الأسبق لا بد من التأويل ليتناسق التعبير مع المراد، فيكون: « مثل نماء جزاء الذين ينفقون أموالهم .. كمثل جنة أو كمثل ثمر جنة » حيث « شبه نمو نفقات المخلصين الذين يربي الله صدقاتهم بنمو الجنة بالربوة إذا أصابها المطر، وإذا لم يصبها فإن الطل يكفيها، وينوب عن الوابل في إخراج الثمرة ضعفين لخطب الأرض وطيب جودتها »[2]، وقوله: « ابتغاء مرضاة الله » يدل على الإخلاص في النفقة، وأنه يبتغي بها وجه الله لا غير، وما يترتب على النفقة من مضاعفة الثواب والأجر فإنما هو قائم على الإخلاص الذي قامت الصدقة عليه.

وقوله تعالى: ﴿ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ لتثبيت أنفسهم على الحق، وهنا يرد سؤال عن معنى التبعيض في قوله تعالى: « وتثبيتًا من أنفسهم » أورده الزمخشري، وأجاب عنه فقال: « قلت معناه أن من بذل ماله

(١) البقرة - ٢٦٥.

(٢) المثل في القرآن والسنة د/ محمود سامي - ٦١.

لوجه الله، فقد ثبت بعض نفسه، ومن بذل ماله وروحه، فهو الذي ثبتها كلها « وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم »[1].

وقوله: « كمثل جنة بربوة » أي كمثل ثمر جنة بربوة، وكلمة « جنة » توحي بمدى خصوبة الأرض، وجودة تربتها ونباتها، فأشجارها كثيرة ملتفة متشابكة خضراء زاهية حتى إنها لتجن وتستر من بداخلها فلا يراه أحد، كما تستر بطن الأم ما بداخلها، وكلمة « ربوة » تعني ما ارتفع من الأرض، وله خصائص منها: جودة التربة وخصوبتها لتعرضها كثيرًا للشمس والهواء ولحسن صرفها، وجفافها معظم الأوقات مما يؤدي إلى نظافتها من مسببات الآفات وهذا مرغوب فيه في كل البيئات، ما دام يسهل وصول الماء إليه وسقيه.

وقوله تعالى: « أصابها وابل » أي غيث كثير، والتعبير بأصابها يوحي بالبساطة وعدم التكلف في سقي الربوة وزراعتها، وأن الوابل هو الذي أصابها عن غير قصد، والغيث الساقط من السماء ينزل من أعلى مما وجه نظر علماء الزراعة الحديثة إلى هذه الطريقة، وهي سقي النبات بالرش من أعلاه، يقول أحد الباحثين: « إن هذا المثل المحسوس يلفت الأنظار إلى الزراعة، وكيف يتضاعف ثمرها إذا كانت في ربوة أي أرض مرتفعة، لأن ارتفاعها يساعد نباتها على أن يأخذ ما يفتقر إليه من الهواء وأشعة الشمس ما يكفيه ومن الماء ولاسيما ماء المطر الوابل أي الكثير، أو الطل أي القليل، أو الرذاذ، ويبدو من هذا المثل أن من

(١) الكشاف - ١/ ١٦١.

أساليب الري النافعة للنبات أسلوب رش النبات من أعلاه ، وهامم أولاء علماء النبات والزراعة قد اهتدوا حديثًا إلى هذا الأسلوب الذي أشار إليه القرآن منذ أربعة عشر قرنًا من الزمان »[1]. مما يدل على سبق القرآن وإعجازه .

وفي قوله تعالى : « فآتت أكلها ضعفين » أي أنتجت من الثمر ضعفي ما تنتجه غيرها من الأرض الجيدة ، فكان محصولها وافرًا ، وهذا يدل على كرم التربة ومدى خصوبتها ، نظير الإخلاص في الإنفاق فإن ثمرته مضاعفة لأنه مقصود به ابتغاء مرضاة الله ، ويظهر مدى خصوبة التربة في قوله عز وجل : ﴿ فإن لم يصبها وابل فطل ﴾ أي إذا لم يسقط الغيث الكثير ، فإن القليل من الغيث وهو « الطل » كاف في إنبات النبات وجني الثمرة المضاعفة لأن التربة الخصبة يكفيها القليل من الماء .

يقول ابن القيم وتحت هذا المثل من الفقه : أنه سبحانه شبه الإنفاق بالبذر ، فالمنفق ماله الطيب لله لا لغيره ، باذر ماله في أرض زكية مغلة بحسب بذره ، وطيب أرضه ، وتعاهد البذر بالسقي ونقي الدغل والنبات الغريب عنه ، فإذا اجتمعت هذه الأمور ، ولم تحرق الزرع ولا لحقته جائحة ، جاء أمثال الجبال ، وكان مثله كمثل جنة بربوة ، وهي المكان المرتفع الذي تكون فيه الحبة نصب الشمس والرياح ، فتربى الأشجار هناك أتم تربية فنزل عليها من السماء مطر عظيم القطر متتابع فرواها ونماها فآتت أكلها ضعفي ما تؤتيه غيرها بسبب ذلك الوابل ،

(١) القرآن أحسن الحديث / خلف محمد الحسيني - ١٤٠ .

وإن لم يصبها وابل فطل مطر صغير القدر يكفيها لكرم منبتها ، تزكو على الطل ، وتنمي عليه ، مع أن في إنفاقه طلاً ، والله لا يضيع مثقال ذرة »[1] من خير ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨ ﴾[2]، والإخلاص هو الذي ينمي الأعمال ويزكيها وهذا « يدل على أن الخير الضئيل إذا صدر عن سماحة شاكرة لا تملك ما تمنح منه الكثير ، حل محل الكثرة الهاطلة من ذوي الخير الماطر والسبب المتقاطر ، لأن الأعمال بالنيات ولن يكلف الله نفسًا إلا ما آتاها »[3].

وعقب على المثل بقوله تعالى : ﴿ والله بما تعملون بصير ﴾ لكي يشير للمنفق أن الله بصير بعمله خيرًا كان أم شرًا ، فيه إخلاص أم رياء، قليل أم كثير ، وكل الحيثيات التي تحيط بالنفقة والله عليم بها بصير ، وفي هذا ترغيب للمنفق لأن يعلم أن الله مطلع عليه ومثيبه على قدر إخلاصه ، وليطمئن المنفق إلى أن عمله لن يذهب هباءً .

وهكذا صور القرآن المعاني المجردة في المثل في صورة حية نابضة نامية متطورة مما جعلها عالقة بالفكر والوجدان فتؤتي أكلها في نفس المؤمن ، وهو ينظر إلى نماء أجر نفقته بأرض مرتفعة خصبة تضاعف انتاجها إذا نزل الغيث الكثير أو القليل فلإخلاص النفقة الأثر الكبير في هذه المضاعفة ، « ويرمي القرآن من هذا التصوير إلى إبراز دقائق المعاني وإيضاحها والانتقال بالذهن من المدرك بالعقل إلى المشاهد بالحس ليقرر

(١) الأمثال لابن القيم - ٢٥٤، ٢٥٥.
(٢) الزلزلة - ٧، ٨ .
(٣) الإعجاز البياني د/ محمد رجب البيومي - ٩٧ .

المعاني في النفوس ، ويعرض مقدارها وحالها ، أو لتزيل ما يعترض قبولها من شك في وقوعها أو ريب في إمكانها»[1] بعد أن شاهدها متحركة متطورة نامية ، والمعاينة من أقوى الأدلة لتثبيت المعاني المجردة في النفوس .

وبالموازنة بين المثلين للمخلص وللمرائي أو المبطل نفقته بالمن والأذى تتضح الصورة أكثر فأكثر « فهذه الصدقات التي تنفق ابتغاء مرضاة الله ، هي في هذه المرة كالجنة لا كحفنة من تراب ، وإذا كانت حفنة التراب هناك على وجه صفوان ، فالجنة هنا فوق ربوة ، وهذا هو الوابل مشتركا بين الحالتين ، ولكنه في الحالة الأولى يمحو ويمحق ، وفي الحالة الثانية يربي ويخصب ، في الحالة الأولى يصيب الصفوان فيكشف عن وجه كالح كالأذى ، وفي الحالة الثانية يصيب الجنة فيمتزج بالتربة ، ويخرج أكلاً » ، ولو أن هذا الوابل لم يصبها ، فإن فيها من الخصب والاستعداد للإنبات ما يجعل القليل من المطر يهزها ويحييها ، فإن لم يصبها وابل فطل »[2] .

ومن هذه الأمثلة نرى مدى اهتمام القرآن بأمر النفقة ، والإنفاق في سبيل الله وآدابه « فهذه مكانة الإنفاق في سبيل الله ، وهذه عدة الله الصادقة لمن يجود بماله في سبيله ، وهما كما نرى مكانة وعدة لم يحظ بها شيء من التكاليف الإلهية سوى الإنفاق ، فالصلاة على مكانتها في

(١) من الإعجاز البياني في القرآن الكريم / خليل محمد خليل - ٧٦.
(٢) التصوير الفني في القرآن / سيد قطب - ٣٥ ، ٣٦.

الدين ، على أنها الركن الذي يلي الإيمان لا تقع موقعها إلا إذا دفعت بصاحبها إلى القيام بحق الفقير والمسكين ، وكذا الصوم والحج لا نجد لهما في ترغيب القرآن وترهيبه مثل ما وجدناه للإنفاق في سبيل الله .

فهل لنا أن نقرر أن الإسلام لا يقيم وزنًا لشيء من تكاليفه إذا لم تغرس في قلب المسلم عاطفة الرحمة مبعث الإنفاق والعطاء »[1] .

إن واقعية الإسلام قرنت القول بالفعل ولم تفصل بينهما حتى تستقيم الحياة ويعلو شأنها تحت راية الإسلام فحث على النفقة لسد خلة الفرد والمجتمع ، وكانت أمثال القرآن خير معين على ذلك في تعبيرها وتصويرها مرغبة في الإنفاق وحاثة عليه في أسلوب معجز بلغ القمة في الإعجاز .

(١) منهج القرآن في حياة المجتمع / محمود شلتوت - ٩٦ ، ٩٧ .

المثل الحادي عشر

وهو متعلق بأمثال الإنفاق قبله ، وهو يصور عاقبة المن والأذى في محق آثار الصدقة محقًا ، وفيه ترهيب للمؤمن أن يطول عمله مَنٌّ أو أذى ، يقول تعالى : ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (٢٦٦)﴾ [1].

قال ابن عباس : « هذا مثل المرائي في نفقته الذي ينفق لغير الله ينقطع عنه نفعها أحوج ما يكون إليه ، وقال الحسن : هذا مثل قلَّ والله من يعقله من الناس ، شيخ كبير ضعف جسمه وكثر صبيانه أفقر ما كان إلى جنته ، وإن أحدكم والله أفقر ما يكون إلى عمله إذا انقطعت عنه الدنيا. ويقول : فهذا مثل ضربه الله سبحانه في الحسرة لسلب النعمة عند شدة الحاجة إليها مع عظم قدرها ومنفعتها فحاجته إلى نعمته .. حينئذ أشد لضعفه وضعف ذريته .. فأصبح يومًا وقد وجده محترقًا كله كالصريم ، فأي حسرة أعظم من حسرته» [2].

وفي التمثيل هنا تصوير لضياع آثار النفقة المصحوبة بالمن والأذى أو الرياء ، بدئ بالاستفهام في قوله : « أيود » والمقصود به النفي والاستنكار أي : لا يود أحد هذا المصير، وقوله : « جنة» يوحي معنى

(١) البقرة - ٢٦٦.
(٢) الأمثال لابن القيم - ٢٥٥ ، أعلام الموقعين - ١/ ٢٠١.

الجنة بالراحة والاستقرار والموئل الذي يفد إليه ويستريح في ظله وبما فيه من أشجار عظمية مثمرة متشابكة تجن من يدخلها ، وقد وصفها بثلاث صفات :

١- أنها مكونة من نخيل وأعناب لكثرتهما فيها من باب المبالغة .

٢- تجري من تحتها الأنهار ، وهذا نعيم آخر يزيدها رونقًا وبهاءً.

٣- فيها من كل الثمرات ، وهذا يدل على تعدد النعيم .

وفي قوله : « تجري من تحتها الأنهار » من وجوه البلاغة المعجزة الشيء الكثير فقوله « تجري » من الألفاظ الموحية المعبرة ، فهي مياه متجددة ليست واقفة ولا راكدة ، وكلمة « تحتها » توحي بالتمكن من هذه الأنهار والسيطرة عليها ، فهي تحت إمكانه وتصرفه ، وقوله : «الأنهار » ليست نهرًا واحدًا ، إنما هي أنهار متعددة والزارع إذا ضمن السقي فقد حلت مشاكل زراعته تقريبًا .

وفي قوله تعالى : ﴿ له فيها من كل الثمرات ﴾ حبوب مجففة تختزن وفواكه طازجة يتنعم فيها بكل ألوان النعم « .. إنها ظليلة وارفة مخصبة مثمرة ، وكذلك الصدقة في طبيعتها وآثارها .. كذلك هي في حياة المعطي ، وفي حياة الآخذ ، وفي حياة الجماعة الإنسانية ، كذلك هي ذات روح وظل ، وذات خير وبركة ، وذات غذاء وري وذات زكاة ونماء »[1].

(١) في ظلال القرآن - ١/ ٣٠٩.

ويعلل الزمخشري لذكر « من كل الثمرات» بعد ذكر النخيل والأعناب ، يقول : « النخيل والأعناب لما كانا أكرم الشجر وأكثرها منافع خصهما بالذكر وجعل الجنة منهما ، وإن كانت محتوية على سائر الأشجار تغليباً على غيرها ، ثم أردفها ذكر كل الثمرات» [1].

وفي قوله : « وأصابه الكبر» إيحاءات منها : قلة الحركة ، وضعف الجهد ، في حين أن « له ذرية ضعفاء » صغار يحتاجون إلى سعيه لهم وكده من أجلهم ، وقد أصابه الكبر ، فهو محتاج لمصدر رزقه ، ومتعلق به ، بل هو في أشد الحاجة إليه في هذا الوقت .

وفي لحظة ، شدة الحاجة إليها حدث عالم يكن في الحسبان «فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت » فالإعصار : ريح تهب بشدة تستدير في الأرض ثم تسطع نحو السماء وتثير الغبار ، وترتفع إلى السماء كالعمود ، وهذا الإعصار مدمر جائح ، فما بالك إذا كان فيه نار ، ريح شديدة مختلطة بالنار ، تدمر وتبيد ، فاحترقت الجنة بما فيها وقت شدة الحاجة إليها ، فأي حسرة أعظم من حسرته ، كذلك يضرب الله الأمثال ليتفكر العقلاء [2] !! فتعرض للضياع والهلاك هو وذريته ، وهذا مصير بائس لكل من يعمل لغير الله أيًا كانت الغيرية ، « فمن ذا الذي يود أن تكون له هذه الجنة ، أو هذه الحسنة ، ثم يرسل عليها عجزًا عن إنقاذها ، وحاجة إلى ظلها ونعمائها ! .. من ذا الذي يود هذا ؟ ومن ذا الذي يفكر

(١) الكشاف - ١/ ١٦٢.
(٢) تفسير الطبري - ٣/ ٥٠.

في ذلك المصير ثم لا يتقيه ؟ .. وهكذا يقوم المشهد الحي الشاخص، بما فيه أول الأمر من رضى ورفة ومتعة ، وما فيه من نضارة وروح وجمال ، ثم بما يعصف به عصفًا من إعصار فيه نار .. يقوم هذا المشهد العجيب بالإيحاء الشعوري الرهيب الذي لا يدع مجالاً للتردد في الاختيار ، قبل أن تذهب فرصة الاختيار ، وقبل أن يصيب الجنة الوارفة الظليلة المثمرة إعصار فيه نار! »[1] .

إن الصدقة والنفقة في سبيل الله كالجنة المثمرة بأنهارها وثمارها ، فإذا اختلط بها المن والأذى والرياء أبطل ثوابها ومحقه كما يمحق الإعصار بناره الحديقة بأشجارها وثمارها ، يقول ابن قتيبة : « يردون يوم القيامة على أعمال قد محقها الله وأبطلها ، ووكلهم في ثوابها إلى من عملوا له ، أحوج ما كانوا إلى أعمالهم ، فمثلهم كمثل رجل كانت له جنة ، فيها من كل الثمرات وأصابه الكبر فضعف عن الكسب ، وله أطفال لا يجدون عليه ولا ينفعونه ، فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت ففقدها أحوج ما كان إليها عند كبر السن ، وضعف الحيلة ، وكثرة العيال، وطفولة الولد وهو معنى قول ابن عباس وغيره [2].

هكذا كان المثل مصوراً ومعبراً أتم تعبير وأشده تأثيراً على النفس قبل أن تفوت الفرصة ليصحح الإنسان نيته ، ويخلص عمله ، حتى لا يرى ثمرة جهده وكده وهي تحترق ،أحوج ما يكون إليها ؛ « إن كل فقرة

(١) في ظلال القرآن - ١/ ٣١٠ بتصرف .
(٢) تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة - ٣٢٤.

من هذه الفقرات لتحمل من تيارها الكهربي ما يهز القلوب الغلف والمشاعر الصم فتنأى عن نزوات الضعف ، ومهاوي الضعة لو رزقت الحس النافذ والشعور الحسي ، وماذا عسى أن تقول في رجل أصابه الكبر ، وله ذرية ضعفاء وكان يضع أمله في جنة يملكها من نخيل وأعناب ، تجري من تحتها الأنهار ، فأصابها إعصار فيه نار ، فاحترقت ، هذا الإعصار ، وتلك النار هما المن الآثم والرياء المقيت ، وقد رأيت مبلغهما في الإبادة والاستئصال .

لا أظن القارئ بعد مشاهدة هذه الصور المؤثرة في حاجة إلى ما يهز أعماقه ويثير وجدانه لقد بلغ القرآن به أقصى المبالغ البيانية تأثيراً وانجذاباً »[1] .

ويعلق ابن أبي الأصبع على هذه الآية فيقول متحدثاً عن الاستقصاء ومعرفاً له ،بأن يتناول المتكلم معنى فيستقصيه ، فيأتي بجميع عوارضه ولوازمه بعد أن يستقصي جميع أوصافه الذاتية بحيث لا يترك لمن يتناوله بعده فيه مقالاً يقوله ، واستشهد ببيت شعري ، وبقوله تعالى : « أيود أحدكم .. الآية ، ويقول فإذا نظرت إليها علمت ما في نظم القرآن من البلاغة ، وتبينت أن الإعجاز فيه بالفصاحة ، وذلك أنه سبحانه بعد قوله : (جنة) التي لو اقتصر على ذكرها لكان كافيًا ، فلم يقف عند ذلك حتى قال في تفسيرها : (من نخيل وأعناب) إذ لفظ الجنة تطلق على أي شجر كان يظل ورقه الأرض ، فإذا قال : « من نخيل وأعناب »

(١) البيان القرآني د/ محمد رجب البيومي - ٩٧ ، ٩٨ .

كان مصاب ربها بها أعظم ، ثم لم يقف عند ذلك ، حتى قال سبحانه : « تجري من تحتها الأنهار » متممًا لوصفها بذلك ، ثم كمل وصفها بعد التتميم ، بأن قال عز وجل : « له فيها من كل الثمرات» وذلك لما علم - الله سبحانه ، وهو أعلم - أن الاقتصار على وصفها بالنخيل والأعناب لا يكون به وصفها كاملاً ، فأتى بكل ما في الجنان ليشتد الأسف على إفسادها، ثم قال في وصف صاحب الجنة : « وأصابه الكبر » ثم استقصى المعنى في ذلك حتى وصف الذرية بالضعف ، ثم ذكر الاستئصال تلك الجنة التي ليس لهذا الذي أصابه الكبر ، وليس لذريته الضعفاء غيرها بالهلاك في أسرع وقت ، حيث قال : « فأصابها إعصار » ، ولم يقتصر على ذكر الإعصار للعلم بأنه لا تحصل به سرعة الهلاك ، فقال : « فيه نار » ثم لم يقف عند ذلك حتى أخبر سبحانه بإحتراقها لما فيها من الأنهار ورطوبة الأشجار ، فاحترس عن هذا الاحتمال ، بقوله : « فاحترقت » وهذا أحسن استقصاء وقع في كلام وأتمه وأكلمه »[1] .

ولما عرف ابن أبي الأصبع التتميم أو التمام بأنه أن تأتي في الكلام كلمة إذا طرحت من الكلام نقص معناه في ذاته أو في صفاته ولفظة تام، ثم قال: ولا يخلو الكلام أن يرد علي معنى تام في ذاته أو في صفاته أولا ، فإن كان الأول فهو التكميل ، وإن كان الثاني فهو التتميم ...

وضرب الآية التي معنا مثلاً ، فجاء في هذه الآية ثمانية مواضع في كل منها تتميم ، وأتت على جميع أقسام التتميم الثلاثة : من تتميم

(١) بديع القرآن لابن أبي الأصبع - ٢٤٧ ٢٥٠ بتصرف .

النقص ، وتتميم الاحتياط ، وتتميم المبالغة .

فأولها في قوله تعالى في تفسير الجنة : « من نخيل وأعناب » لاحتمال أن تكون جنة ذات أثل وخمط فإن لفظ الجنة يصدق على كل شجر مجتمع يستر بظل غصونه الأرض كائنًا ما كان ، ومن الشجر ما له نفع عظيم عميم كالنخيل والأعناب ، وماله نفع قليل كالأثل والخمط ، ومع هذا ، فلو احترقت للإنسان جنة من أثل وخمط لاشتد أسفه عليها ، فكيف إذا كانت من نخيل وأعناب ؟ ثم علم سبحانه أن الجنة وإن كانت من نخيل وأعناب - مالم تجر من تحتها الأنهار لم يثمر شجرها ، ولم ينتفع بسكنها ، ولم تكن لها حياة البتة فتتمم هذا النقص بقوله تعالى : «تجري من تحتها الأنهار » ، ثم علم عز وجل أن الجنة لو جمعت إلى النخيل والأعناب كل الثمرات ، ، كان وصفها أتم ، ونفعها أعظم والأسف على فسادها أشد ، فقال متممًا هذا النقص « تتميم» مبالغة « له فيها من كل الثمرات » ، ولما فرغ سبحانه من أوصاف الجنة أخذ في وصف صاحبها فوصفه بالكبر ، لأنه لو كان شابًا لرجا أن يخلفها بعد إحراقها ، لما يجد في نفسه من القوة ، ويأمل من طول المدة ، فقال محتاطًا :« وأصابه الكبر » ثم علم سبحانه أنه إذا كان عقيمًا مع الكبر سلاء عنها قرب المدة ، وعدم من يهتم بعد ، فلا يشتد أسفه عليها ، فقال عز وجل محتاطًا أيضًا : « وله ذرية » ، ثم علم أنه إذا لم يوصف الذرية بالضعف احتمل الإطلاق أن يكونوا أقوياء فيترجى إخلافهم لها فيخفض ذلك من أسفه ، فقال محتاطًا : « ضعفاء » ، ثم لما فرغ من

وصف الجنة أخذ في وصف الحادث المهلك لها بقوله عزَّ وجل : «فأصابها إعصار » وعلم تبارك وتعالى أن الإعصار لا يعجل فساد هذه الجنة ، ولا يحصل هلاكها به إلا بعد استمراره عليها في مدة طويلة ، وهو يريد الإخبار بتعجيل هلاكها ، فقال : « فيه نار » ثم اقتصر سبحانه من الرياح على الإعصار لكونه عبارة عن تقابل الرياح المثيرة للعجاج الكثيف الذي دوامه يعمي عيون الماء ، ويطم الآبار والأنهار ، ويحرق بسمومه ووهجه الأشجار ، وإذا اتفق مع ذلك أن تكون فيه نار أدارها على المكان الذي يكون فيه بحيث لا ينصرف عنه ، لأنه لا يقصد وجهه مقابلة ، فينصرف ما يكون فيه إليها ، ثم علم سبحانه أن النار يحتمل أن تكون ضعيفة فتطفأ لضعفها عن مقاومة ما في الجنة من الأنهار ورطوبة الأشجار ، فاحتاط من ذلك بقوله تعالى : « فاحترقت » فنفى هذا الاحتمال وأوجز في تتميم المعنى المراد ، فانظر ما تضمنت هذه الآية الكريمة من تقاسيم هذا النوع إلى ما فيها من ائتلاف اللفظ بالمعنى . والتهذيب وحسن النسق والتمثيل ، وحسن البيان والمساواة : لتعلم أن هذا الكتاب الكريم بأمثال هذه الآية عجز الفصحاء وبلد الأذكياء وأعيا على البلغاء » [1].

والأمثال القرآنية إضافة إلى هذا الإحكام وبلوغ أقصى رتبة في البلاغة والبيان تآلفت وتناسقت تناسقًا عظيمًا في رسم الصور المؤثرة لموضوع خطير من أهم المواضيع في حياة الأمة الإسلامية ، وهو الإنفاق

(١) بديع القرآن - ٤٥-٤٨ بتصرف .

في سبيل الله دفعًا إليه وتطهيرًا له من الشوائب حتى يكون خالصًا مصفى لوجه الله ينفع الله به الفرد والمجتمع ، المعطى والآخذ ، كالشجرة الوارفة يستمتع بها كل من تظله ، و« إن التناسق الدقيق الجميل الملحوظ في تركيب كل مشهد على حدة ، وفي طريقة عرضه وتنسيقه ، هذا التناسق لا يقف عند المشاهد فرادى ، بل إنه ليمد رواقه فيشمل المشاهد مجتمعة من بدئها في هذا الدرس إلى منتهاها ... إنها جميعًا تعرض في محيط متجانس ، محيط زراعي ، حيث أنبتت سبع سنابل ، صفوان عليه تراب ، فأصابه وابل ، جنة بربوة فآتت أكلها ضعفين ، جنة من نخيل وأعناب حتى الوابل والطل والإعصار التي تكمل محيط الزراعة ، لم يخل منها محيط العرض الفني المثير »[1].

كان هذا العرض والتصوير في محيط الطبيعة التي يحياها الإنسان ، وفي البيئة الزراعية خاصة بمالها من ارتباط بالنفقة والإنفاق ، ومن هنا كانت الصور أقرب إلى النفس وأكثر تأثيرًا فيها بلوحاتها ومشاهدها المعبرة والموحية والمؤثرة التي أظهرت أدق الأمور المعنوية في صورة محسوسة متحركة نامية متطورة بما يدفع العاقل إلى انتهاز الفرص وتطهير النية ، حتى لايندم ولات حين مندم.

(١) في ظلال القرآن - ١/ ٣١٠.

المثل الثاني عشر

وفي هذا المثل ترهيب شديد من التعامل بالربا خشية سوء العاقبة من الصرع والخلود في النار يقول الله تعالى :﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٧٥) ﴾[1].

فقد عبر تعبيرًا معجزًا يظهر مدى العدل الإلهي بأن الله لا يعاقب إلا من أصر ومن تكرر منه ذلك بعد علمه بالحرمة ويظهر أيضًا الرحمة من الله بعباده في أنه ينذر ويحذر قبل العقاب ، فالآية بدأت باسم الموصول الذين ، وصلته الفعل المضارع « يأكلون » بما يدل عليه من التجدد والاستمرار أي أن الفعل متجدد ومستمر ، وأنهم يواصلون أكل الربا فلم ينتهوا عما نهاهم الله عنه من أكل الربا استمر منهم ذلك وهو مناط الترهيب في المثل ، فبقي على ما هو عليه من أكل الربا وأصر على ذلك ، فقد حمل عليه القرآن حملة شديدة « إنها الحملة المفزعة والتصوير المرعب : « لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس » ، وما كان أي تهديد معنوي ليبلغ إلى الحس ما تبلغه هذه الصورة المجسمة الحسية المتحركة ... صورة الممسوس المصروع .

وهي صورة معروفة معهودة للناس ، فالنص يستحضرها لتؤدي

(١) البقرة - ٢٧٥.

دورها الإيحائي في إفزاع الحس ، لاستجاشة مشاعر المرابين ، وهزها هزة عنيفة تخرجهم عن مألوف عادتهم في نظامهم الاقتصادي ، ومن حرصه على ما يحققه لهم من الفائدة .. وهي وسيلة في التأثير التربوي ناجعة في مواضعها بينما هي في الوقت ذاته تعبر عن حقيقة واقعة»[1].

وقوله تعالى : ﴿لا يقومون إلا كما يقوم ﴾لا يقومون إذا بعثوا من قبورهم ، ومعظم المفسرين على أنه يوم القيامة في الآخرة [2]» ولقد مضت معظم التفاسير على أن المقصود بالقيام في هذه الصورة المفزعة ، هو القيام يوم البعث ، ولكن هذه الصورة فيما نرى واقعة بذاتها في حياة البشرية في هذه الأرض أيضًا ، ثم إنها تتفق مع ما سيأتي بعدها من الإنذرا بحرب من الله ورسوله ، ونحن نرى أن هذه الحرب واقعة وقائمة الآن ومسلطة على البشرية الضالة التي تتخبط كالمسوس في عقابيل النظام الربوي » [3].

ومن معالم الإعجاز في التعبير القرآني استخدام أسلوب القصر استخدامًا رائعًا وتوظيفه توظيفًا أدائيًا وبيانيًا جيدًا لخدمة الصورة القرآنية البليغة والمؤثرة ، فهو يقوي الصورة ويؤكد معانيها ، فالمرابي لا يقوم إلا قيامًا كما يقوم المسوس لا غير ، والتعبير في قوله تعالى : « يتخبطه الشيطان» التعبير بالفعل المضارع الذي يدل على التجدد والاستمرار ، لا

(١) في ظلال القرآن - ١/ ٣٢٣، ٣٢٤ بتصرف .
(٢) الكشاف - ١/ ٣٩٨ ، مختصر تفسير ابن كثير - ١/ ٣٤٦ ، وغيرهما من كتب التفسير .
(٣) في ظلال القرآن - ١/ ٣٢٤.

أنها خبطة ، واحدة وانتهت فهذا مفعولها وبطل أثرها ، ولكن يتخبطه بهذه الصورة تدل على أن الشيطان واقف له بالمرصاد يتخبطه مرة بعد مرة ، « والخبط : الضرب على غير استواء كخبط العشواء.. وأن الجني يمسه فيختلط عقله ، وكذلك جن الرجل معناه : ضربته الجن .. فإن قلت بم يتعلق قوله : من المس ، قلت : بلا يقومون : أي لا يقومون من المس الذي بهم إلا كما يقوم المصروع ، ويجوز أن يتعلق بيقوم ، أي كما يقوم المصروع من جنونه ، والمعنى أنهم يقومون يوم القيامة . مخبلين كالمصروعين تلك سيماهم يعرفون بها عند أهل الموقف ، وقيل الذين يخرجون من الأجداث يوفضون إلا أكلة الربا فإنهم ينهضون ويسقطون كالمصروعين ، لأنهم أكلوا الربا فأرباه الله في بطونهم حتى أثقلهم فلا يقدرون على الإيفاض» [1]، والتخبط بصيغة التفعل يدل على التكلف أو الشدة ، والعنف في الخبط ، لأن زيادة المبني تدل على زيادة المعنى فلا شك أن التخبط أقوى من الخبط وأشد .

والمثل هنا بصياغته صور لنا صورة قبيحة : للمرابي في الدنيا قبل الآخرة ، وهو يتخبط من الشيطان دائمًا وباستمرار، وهو كالمصروع في كل أحواله ، فقد كشف المثل عن الحقائق المعنوية المجردة ، وجعل الغائب في معرض الحاضر المتيقن ، وذلك سر من أسرار بلاغة القرآن الكريم أنه يريك المعنى المجرد صورة مشاهدة متحركة نامية ، وقد ذكر الباحثون هذه الآيات في آيات الأمثال ، وعدوها مثلاً للمرابين[2] .

(١) الكشاف ١/ ٣٩٩ بتصرف .
(٢) انظر ك التمثيل في القرآن / خليل محمد خليل - ٢٦ ، ٢٧ ، علوم القرآن والتفسير د/ عبد الله شحاته - ٢١٨ وغيرها .

والمشاهد عندما يتأمل أحوال المرابين في واقع حياتهم وانشغالهم وحركتهم في الحياة وآثار الربا على المتعاملين به الآخذوا المعطى على السواء يتأكد من صدق هذا المثل عليهم .

« إنهم لا يقومون في الحياة ولا يتحركون إلا حركة المهوس المضطرب القلق المتخبط الذي لا ينال استقراراً ولا طمأنينة ولا راحة ... وإذا كان هناك شك في الماضي أيام نشأة النظام الرأسمالي الحديث في القرون الأربعة الماضية ، فإن تجربة هذه القرون لا تبقى مجالاً للشك أبداً، إن العالم الذي نعيش فيه في أنحاء الأرض هو عالم القلق والاضطراب والخوف والأمراض العصبية والنفسية باعتراف عقلاء أهله ومفكريه وعلمائه ودارسيه ، وبمشاهدات المراقبين والزائرين العابرين لأقطار الحضارة الغربية ، وذلك على الرغم مما بلغته الحضارة المادية والإنتاج الصناعي في مجموعه من الضخامة في هذه الأقطار » [1].

وفي قوله تعالى : « ذلك بأنهم قالوا : إنما البيع مثل الربا » قصر لتأكيد كلامهم وتقوية وجهة نظرهم ، وتشبيه مقلوب حسب فهمهم ، ولكن الحق المفهوم من شرع الله غير ذلك ، وفي هذا فضح لمغالطتهم لأنهم قلبوا الأمر حسب أهوائهم ، وكان الأليق بهم أن يقولوا « : إنما الربا مثل البيع » فيكون الأمر فيه نوع من المعقولية ، ولكنهم بقلبهم للأمور ، وأن البيع مثل الربا في الحل ضلوا ضلالاً بعيداً ، فالأصل عندهم في الحل هو الربا ، والبيع ملحق به ، فكان الخطأ مركباً ، والذنب

(١) في ظلال القرآن - ١/ ٣٢٥ بتصرف .

مضاعفاً ، الربا حلال هذه واحدة ، والبيع حلال مثله ، ومن أجل هذا قلب الله أوضاعهم وتوعدهم بحرب من الله ورسوله ، ودل التعبير على مدى ما عشش الربا في رؤوسهم ومعاملاتهم ، « وكانت شبهتهم أنهم قالوا : لو اشترى الرجل مالا يساوي إلا درهماً بدرهمين جاز ، فكذلك إذا باع درهماً بدرهمين .. جئ به على طريق المبالغة ، وهو أنه قد بلغ من اعتقادهم في حل الربا أن جعلوه أصلاً وقانوناً في الحل حتى شبهوا به البيع ، وقوله تعالى : « وأحل الله البيع وحرم الربا ش إنكار لتسويتهم بينهما ودلالة على أن القياس يهدمه النص ،لأنه جعل الدليل على بطلان قياسهم تحليل الله وتحريمه » [1].

فقد أبطل الله مألوف عاداتهم ، فمن انتهى عما تعود فله ما مضى، وأمره إلى الله إن شاء عاقبة وإن شاء عفا عنه ، ومن عاد إلى الربا والعودة تعني الإصرار فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون .

فالتهديد والوعيد الشديد لم يأتيا في المثل أمراً معنوياً فحسب ، وإنما تمثل ذلك في صورة شخص يتحرك على غير هدى أو تبصر كالمصروع ، والشيطان واقف له بالمرصاد يتخبطه كلما هدأ ، ويظل في حركة المصروع دائماً جزاء وفاقاً ، ثم يذكر مبررات ذلك الأمر أنهم قلبوا حقائق الأمور ، فاستحلوا الربا وجعلوا البيع مثل الربا ، ولم يلتفتوا إلى تحريم الله أو تحليله ، فقد أبطل الله حجتهم ، وكشف ضلالهم في أسلوب بلغ القمة في الإعجاز في مشهد حي متحرك ، بل تأخذ الحركة فيه أبعاداً عقابية ، وأدخل فيها عنصراً آخر هو الشيطان ، بما له من تأثير في التشنيع والتقبيح والتنفير .

(١) الكشاف - ١/ ٣٩٩ ، ٤٠٠ بتصرف .

المثل الثالث عشر

وفيه ترهيب من الوقوع في الجرائم الاجتماعية التي تخص الفرد في حرماته وكرامته وحريته حتى يقوم المجتمع الفاضل الكريم مجتمع المؤمنين كما في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾ ﴾[1].

فقد عدد المثل بسياقه بعض الجرائم الاجتماعية كالظن السيء بالمسلمين ، والتجسس عليهم والغيبة ، وهذه أمور تهز أمن المجتمع المسلم ، وتزعزع استقرار الأمة المؤمنة ، ومن هنا بدأ المثل بقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ ناداهم بحيثية الإيمان ، حيث يتحرك المؤمن عن هذا المنطلق ، ولاستجاشة : مشاعره ، ولأهمية هذا النداء في العملية التربوية حيث قال ابن مسعود وغيره من السلف - رضي الله عنهم - : « إذا سمعت الله تعالى يقول : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ فارعها سمعك فإنها خير يؤمر به ، أو شر ينهى عنه »[2].

وفي سبب النزول يقول ابن عباس : « إن سلمان كان يخدم رجلين من الصحابة ، ويسوي لهما طعامهما فنام من شأنه يومًا فبعثاه إلى رسول الله -ﷺ- يبغي لهما إدامًا ، وكان أسامة على طعام رسول الله -ﷺ-

(١) الحجرات -١٢.
(٢) مختصر تفسير ابن كثير - ١/ ٤٢.

فقال ما عندي شيء . فأخبرهما سلمان بذلك ، فعند ذلك قالا : لو بعثناه إلى بئر سميحة لغار ماؤها ، فلما راحا إلى رسول الله -ﷺ- قال لهما : « مالي أرى خضرة اللحم في أفواهكما ؟ فقالا : ما تناولنا لحمًا ، فقال : إنكما قد اغتبتما فنزلت »[1].

وفي الآية عدة توجيهات :

التوجيه الأول : « اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم » ، «فلا يتركوا نفوسهم نهبًا لكل ما يهجس فيها حول الآخرين من ظنون وشبهات وشكوك ، وتعلل هذا الأمر « إن بعض الظن إثم وما دام النهي منصبًا على أكثر الظن ، والقاعدة أن بعض الظن إثم ، فإن إيحاء هذا التعبير للضمير هو اجتناب الظن السيء أصلاً ، لأنه لا يدري أن ظنونه تكون إثمًا ! بهذا يطهر القرآن الضمير من داخله أن يتلوث بالظن السيء، فيقع في الإثم ، ويدعه نقيًا بريئًا من الهواجس والشكوك . أبيض يكن لإخوانه المودة التي لا يخدشها ظن السوء ، والبراءة التي لا تلوثها الريب والشكوك والطمأنينة التي لا ينكرها القلق والتوقع ، وما أروع الحياة في مجتمع برئ من الظنون»[2]. واجتنبوا أي ابتعدوا عنه . «والمأمور باجتنابه هو بعض الظن ، وذلك البعض موصوف بالكثرة ، ألا ترى إلى قوله : « إن بعض الظن إثم » .... فمجيئه نكرة يفيد معنى البعضية ، وأن في الظنون ما يجب أن يجتنب من غير تبيين لذلك ولا

(١) الكشاف - ٣/ ٥٦٩.
(٢) في ظلال القرآن - ٦/ ٣٣٤٥.

تعيين لئلا يجترئ أحد على ظن إلا بعد نظر وتأمل وتمييز بين حقه وباطله بأمارة بينة مع استشعار للتقوى والحذر ، ولو عرف لكان الأمر باجتناب الظن منوطًا بما يكثر منه دون ما يقل ، ووجب أن يكون كل ظن متصفًا بالكثرة مجتنبًا ، وما اتصف منه بالقلة مرخصًا في تظنته ، والذي يميز الظنون التي يجب اجتنابها عما سواها ، أن كل مالم تعرف له إمارة صحيحة وسبب ظاهر كان حرامًا واجب الاجتناب ، وذلك إذا كان المظنون به ممن شوهد منه الستر والصلاح ، وأونست منه الأمانة في الظاهر ، فظن الفساد والخيانة به محرم ، بخلاف من اشتهر بين الناس بتعاطي الريب والمجاهرة بالخبائث ، عن النبي -ﷺ- إن الله تعالى حرم من المسلم دمه وعرضه وأن يظن به السوء »[1].

بهذا وضع الإسلام الضوابط الاجتماعية للتفكير الضال المنحرف الذي يتهم الأبرياء بلا بينة ولا دليل ، وطهر ضمير المؤمن تجاه إخوانه حتى يستقيم وضع الحياة الاجتماعية .

التوجيه الثاني : « ولا تجسسوا » التجسس حركة دائبة لكشف العورات والاطلاع على السوءات لإذاعتها ، والحديث عنها ، وهذا من الأخلاق الدنيئة التي نهت الآيات عنها ، تجسس الأمر إذا تطلبه ، وبحث عنه،تفعّل من الجس،كما أن التلمس بمعنى التطلب من اللمس لما في اللمس من الطلب ، وقد جاء بمعنى الطلب في قوله تعالى:وأنا لمسنا السماء..والمراد النهي عن تتبع عورات المسلمين ومعايبهم والاستكشاف

(١) الكشاف - ٣/ ٥٦٧.

عما ستروه ، وعن مجاهد : « خذوا ما ظهر ودعوا ما ستره الله»، وعن النبي -ﷺ- « أنه خطب فرفع صوته حتى أسمع العواتق في خدورهن، قال : يا معشر من آمن بلسانه ، ولم يخلص الإيمان إلى قلبه، لا تتبعوا عورات المسلمين ، فإن من تتبع عورات المسلمين تتبع الله عورته حتى يفضحه ، ولو في جوف بيته »[1] ، هكذا توعد الرسول -ﷺ- هؤلاء الذين لاهم لهم إلا تتبع العورات ، فـ « إن للناس حرياتهم وحرماتهم وكراماتهم التي لا يجوز أن تنتهك في صورة من الصور ، ولا أن تمس بحال من الأحوال ففي المجتمع الإسلامي الرفيع الكريم يعيش الناس آمنين على بيوتهم ، آمنين على أسرارهم ، آمنين على عوراتهم ، ولا يوجد مبرر مهما يكن - لانتهاك حرمات الأنفس والبيوت والأسرار والعورات ، حتى ذريعة تتبع الجريمة وتحقيقها لا تصلح في النظام الإسلامي ذريعة للتجسس على الناس ، فالناس على ظواهرهم، وليس لأحد أن يتعقب بواطنهم ، وليس لأحد أن يأخذهم بما يظهر منهم من مخالفات وجرائم ، وليس لأحد أن يظن أو يتوقع »[2].

هكذا وضع الإسلام سياجًا آخر لحماية الفرد والأمة من أن يراد بهم شر أو أن تنتهك حرماتهم تحت ذريعة ما ، ما دام لم يظهر منهم ما يستوجبون به العقوبة .

وفي التوجيه الثالث كان المثل في قوله تعالى : ﴿ ولا يغتب

(١) الكشاف - ٣/ ٥٦٨.
(٢) في ظلال القرآن - ٦/ ٣٣٤٦.

بعضكم بعضًا أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتًا فكرهتموه ﴾ ، الغيبة ذكر السوء في الغيبة ، و« سئل رسول الله -ﷺ- عن الغيبة ، فقال: أن تذكر أخاك بما يكره ، فإن كان فيه فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه فقد بهته » ، وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - : الغيبة إدام كلاب الناس »[1] ، ثم يصور في مشهد منظور منظرًا يقطع الأمعاء ، ويملأ النفس نفورًا واشمئزازًا ، ويجوب قبحًا واسترجاعًا من تبعة ذلك العمل وهو الغيبة ، وسواء كان المثل من قبيل التشبيه ، أو قبيل الكناية والتعريض ، فهو مثل من الأمثال التي تنفر من الغيبة وتصورها بصورة بشعة ، فقد ضرب له مثلاً صوره بأكل لحم أخيه ميتًا ، وعبر بالفعل المضارع (يأكل) للتصوير والتجدد والحدوث والاستمرار كأن الأكل مستمر إلى الآن ، فماذا يأكل ؟ يأكل لحمًا ، وأكل اللحم شهي لذيذ ، يقبل عليه الإنسان ، كما يقبل المغتاب على الغيبة ، لأن المغتاب له شهوة يقضيها في الكلام وفي تنقص الناس وسلب أعراضهم تمامًا بتمام ، فإذا كان اللحم المأكول لحم إنسان فإنه يكون شنيعًا بشعًا ، فيه شبه بالحيوان المفترس ، بل الحيوان المفترس ينأى عن ذلك ، يقول الشاعر :

وليس الذئب يأكل لحم ذئب

ويأكل بعضنا بعضًا عيانًا

ما أشنع هذا المنظر وأقبحه بحيث ينأى عنه الحيوان المفترس ، وهذا القبح ، وهذه الشناعة لو كان اللحم لحم إنسان ، أي إنسان ، فما بالك

(١) الكشاف - ٣/ ٥٦٨.

إذا كان اللحم المأكول لحم أخيه ؟!! هذه واحدة ، أما الأخرى فإنه ليس لحمًا طازجًا ، وإنما هو لحم أخ ميت ، يقول الزمخشري ، وفيه مبالغات شتى : منها الاستفهام الذي معناه التقرير ، ومنها جعل ما هو في الغاية من الكراهة موصولاً بالمحبة ، ومنها إسناد الفعل إلى أحدكم والإشعار بأن أحدًا من الأحدين لا يحب ذلك ، ومنها أن لم يقتصر على تمثيل الاغتياب بأكل لحم الإنسان حتى جعل الإنسان أخًا ، ومنها أن لم يقتصر على أكل لحم الأخ حتى جعله ميتًا»[1] ، واستعمل أكل اللحم مكان الغيبة لأن عادة العرب جارية بذلك ، قال الشاعر • المقنع الهندي / محمد بن عميرة) :

فإن أكلوا لحمي وفرت لحومهم

وإن هدموا مجدي بنيت لهم مجدًا

ومن هنا قال النبي - ﷺ - : ما صام من يأكل لحوم الناس »[2] .

ويقول ابن القيم عن هذا المثل : « وهذا من أحسن القياس التمثيلي ، فإنه شبه تمزيق عرض الأخ بتمزيق لحمه ، ولما كان المغتاب يمزق عرض أخيه في غيبته ، كأنه بمنزلة من يقطع لحمه في حال غيبة روحه عنه بالموت ، ولما كان مقتضى الأخوة التراحم والتناصر فعلق عليها المغتاب ضد مقتضاها من الذم والعيب والطعن ، كان ذلك نظير تقطيع لحم أخيه ، والأخوة تقتضي حفظه وصيانته والذب عنه ، ولما كان المغتاب متمتعًا

(١) الكشاف - ٣/ ٥٦٨.
(٢) تفسير القرطبي - ٦١٥٥ ط الشعب بتصرف .

بعرض أخيه مستفكها بغيبته وذمه متحليًا بذلك شبه بأكل لحم أخيه بعد تقطيعه ، ولما كان المغتاب محبًا لذلك معجبًا به ، شبه بمن يحب لحم أخيه ميتًا ، ومحبته لذلك قدر زائد على مجرد أكله ، كما أن أكله قدر زائد على تمزيقه .

فتأمل هذا التشبيه والتمثيل وحسن موقعه ، ومطابقته المعقول فيه المحسوس ، وتأمل إخباره عنهم بكراهة أكل لحم الأخ ميتًا ، ووصفهم بذلك في آخر الآية ، والإنكار عليهم في أولها أن يحب أحدهم ذلك ، فكما أن هذا مكروه في طباعهم ، فكفي يحبون ما هو مثله ونظيره فاحتج عليهم بما كرهوه على ما أحبوه ، وشبه لهم ما يحبونه بما هو أكره شيء إليهم ، وهم أشد نفرة عنه ، فلهذا يوجب العقل والفطرة والحكمة أن يكونوا أشد نفرة عما هو نظيره ومشبهه» (١).

وقوله : « فكرهتموه » أي أن من تحقق منه ذلك فالجزاء كراهيته ، وكرهتموه » واقع موقع جواب الشرط وكأنه قيل : لا يحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتًا ، فإن صح هذا منكم ، وهو لابد صحيح فقد كرهتموه ، ومتى كرهتموه ، فاتقوا الله بترك ما يماثله وهو الغيبة » (٢).

وقوله تعالى : « واتقوا الله إن الله تواب رحيم » لاستجاشة مشاعرهم ، وتذكيرهم بالتقوى ومقتضياتها ، وتلويح لهم أن التقوى تقتضي البعد عن هذه الأخلاق الذميمة ، ويشير أيضًا إلى أن الله تواب

(١) الأمثال في القرآن لابن القيم - ٢٢٤ ، أعلام الموقعين - ١/ ١٨٥ .
(٢) حديث رمضان / محمد مصطفى المراغي - ١٣١ - ١٣٣ بتصرف .

رحيم بصيغة المبالغة لمن يذنب ويتوب فإن الله يتقبل توبته برحمته التي يجبر بها ضعف الضعفاء إذا زلوا أو سقطوا ، فإن رحمة الله تنتشلهم مما هم فيه من انحدار وتردي .

وهكذا تعاونت هذه الجزئيات في رسم صورة جميلة للآداب الاجتماعية التي يجب أن يتحلى بها المؤمنون ، وقام المثل بدوره كاملاً بدرجة بلغت حد الإعجاز في تبشيع منظر وهيئة وصورة من يقع في هذه الخطيئة حتى نفرت منه ومن عمله نفورًا عظيمًا ، بحيث لو رأي صورة نفسه وهو يأكل لحم أخيه ميتًا فإن القبح والبشاعة البالغة الحد كما في المثل تقوم بعملية التطهير ، وتجعله يتأفف من نفسه أن يرى على هذه الحال ، ويستنكف أن يراه أحد على هذا الوضع المزري .

وهذا هو المقصود من ضرب المثل في القرآن الكريم ، يكبر الصورة ويضخمها ويجسدها ، حتى يرى الطائع نفسه في صورة مرضية فيقبل على الطاعة ، ويرى العاصي نفسه شر رؤية فيطهر نفسه ويقلع عن هذا الإثم ، وهذا من أسرار التعبير والتصوير القرآني في المثل إنه كلام الله المعجز .

خصائص أمثال المؤمنين

في القرآن الكريم

-أ- الموضوعية

إن دراسة الأمثال التي تتعلق بالمؤمنين لهو شرف جدير بالتبجيل والاحترام ، لأنه أرانا يد القدرة الإلهية ، وهي تعمل لرعاية هذه العصابة المؤمنة مدداً ، وعوناً ، وتحذيراً ، وتوجيهاً إلى ما فيه خيرها في العاجلة والآجلة ، ولم يترك المؤمنين لإيمانهم كما يتصور كثير من الناس ، وقد رأينا فيها ما يلي :

- أنها لون من ألوان الهداية الربانية تدعو إلى الإيمان وإخلاصه ، وتنقيته من الشوائب التي تعكر صفوة من الرياء أو المن والأذى ، والبعد به عن المحبطات للأعمال التي هي أثر من آثار الإيمان .

- أن أمثال المؤمنين تعاونت مع غيرها من الآيات في قيادة الجماعة المؤمنة وحمايتها من مؤثرات الداخل والخارج ، وحياطتها من الضعف إلى القوة ، ومن القلة النامية ، التي ترعاها يد القدرة الإلهية ، وتمدها وتعينها .

- تعرضت الأمثال لتقوية الجماعة المؤمنة من الأساس وهو الإيمان الذي هو مصدر كل خير في حياة الناس ، ومصورة لنور الله وهديه ، وكيف يصلح الناس به ولا ينصلحون بغيره من مناهج البشر الذين يفسدون أكثر مما يصلحون ، كما أمرهم بالوفاء بعدهم الإيماني مع

رسول الله - ﷺ - وعدم الزلل ، والصبر على الشدائد مهما عظمت لنستحق دخول الجنة ، والاقتداء بالأنبياء فكلهم مبتلون ، كما ابتلى نبي الله داود بالحكم والملك ، وعدم النزاع والاختلاف والتفرق ، ودعاهم إلى الإنفاق في سبيل الله ، وطهره ونقاه من الرياء والمن والأذى وغير ذلك من المحبطات . ونهاهم عن الآفات الاجتماعية التي تهدد الأمن والسلم الاجتماعيين كسوء الظن والتجسس والغيبة والربا ، وسوء عاقبة المرتكب أيًا منها ، وقبل ذلك وبعده رسم ونصب المؤمن المثال والنموذج المتكامل ليكون منارة وقدوة للمؤمن . وللإيمان المتجسد في نماذج بشرية يقتدي بها ، من الرسول - ﷺ - وأصحابه - رضوان الله عليهم - كما ضرب لهم المثل بالنساء ليكن حجة على بقية النساء وعلى الرجال من باب أولى ، كما وضحت الأمثال للجماعة المؤمنة مؤامرات الأعداء لكي يحذروهم .

- الترهيب والتنفير من كل ما يؤدي إلى الفرقة والتشتت والضعف للجماعة المسلمة بكشف نواحي الضعف وإبرازها واضحة جلية ، والترغيب في عكسها ، لأن كل ترهيب هناك ترغيب في ضده على طول الخط ، وإن لم يصرح به ، والعكس بالعكس .

- الأمثال تعالج نواح متعددة في وقت واحد ، فهي تربي وتوجه وتقود من ناحية ، وتحمي وتحرس وتحذر من ناحية أخرى ، وتظهر عاقبة كل عمل خارج على حدود الشرع الشريف ، وكلاهما على جانب كبير من الأهمية في قوة الأمة ونمائها .

ب- الخصائص الفنية لأمثال القرآن الكريم :

١- إنها متناهية في عظمة النظم ، وفي دقة اختيار الألفاظ المعبرة الموحية إيحاءً قويًا ، المؤثرة الجزلة المتينة ، وفقًا للمعاني المتحدث عنها ، لأن الألفاظ قوالب للمعاني ، وكما قال الرافعي : « أوجد العرب اللغة مفردات فانية وأوجدها العرب تراكيب خالدة »[1] بحيث يختل المعنى لو استغنى عن لفظ ، أو عبر عنه بلفظ آخر يؤدي معناه ، مما يوضح مدى الدقة في التعبير القرآني عامة ، والأمثال خاصة .

٢- الأسلوب البليغ ، والعبارة القوية السبك الفخمة ، والمعاني الراقية النبيلة ، التي تسمو بالإنسان ، والأمثال القرآنية كانت القمة في أمثال المؤمنين ، مما أعطاها تأثيرًا عجيبًا في الآذان ، وتقريرًا غريبًا لمعانيها في الأذهان والوجدان بحيث تملك على المتلقي نفسه .

٣- وضوح الصورة الأدبية الكاملة والمتكاملة التي هي مناط الإعجاز من ألفاظ وعبارات وصور وجرس موسيقي ، بحيث كانت الأمثال صورة رائعة من صور الإعجاز جمعت التناسق الفني الذي يجمع بين جزئيات الصورة ، أو عناصر العمل الأدبي في مشاهد فنية بديعة دون نشاز أو إخلال .

٤- قيام الأمثال بوظيفتها الفنية في تحويل الأمر المعقول إلى محسوس على أتم الوجوه وأكلمها ، حتى رأينا المشاهد تتوالى أمامنا ونحن نشاهد ، فقد جمعت المعاني الرائعة وصورتها في عبارة موجزة ،

حذف منها كثير من المقاطع اعتماداً على ذكاء المتلقي ، كما وضحنا قبل ذلك .

٥- المطابقة التامة بين الممثل والممثل له مما يحدث انسجاماً وروعة داخل المتلقي لا يعرف لهما سببًا إلا عظمة وإعجاز المثل القرآني في حسن وجمال اختيار الصور للمعاني .

٦- التناسق الفني بمعنى موافقتها للسياق ، فلم تكن نشازاً ، فهي نتيجة لما قبلها ، ومقدمة لما يأتي بعدها ، مع كونها مشاهد مصورة بلغت الحد العظيم في البلاغة والجمال الفني والأدبي .

٧- البساطة في عرض عناصر الطبيعة البيئية والطبيعية والبشرية ، والاستفادة منها قدر الإمكان ، فالجنة مكان عال بما يتبعه من جودة التربة وخصوبتها ، والوابل والطل ، وإيقاع ذلك على المبتغى بنفقته وجه الله ، وكذلك سائر أمثال المؤمنين .

٨- الواقعية في عرض عناصر الطبيعة والبيئة والبشر والغيب عرضًا موضوعيًا بما يجعلها وسيلة للاستفادة والارتقاء والسمو ، مما يجعلها في نطاق فهم الإنسان الذي يأخذ الدرس والعبرة ، والواقعية في عرض المبادئ الإيمانية ، فلم يعرضها على أنها مثل لا يمكن تطبيقها ، وإنما عرضها عرضًا يدل على إمكان تنفيذها ، بل ونفذت فعلاً كابتلاء نبي الله داود - ﷺ - ، وأنهم لا يدخلون الجنة حتى يأتيهم مثل الذين خلوا من قبلهم وما جرى لهم ، ومضاعفة ثواب النفقة كالحبة التي أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة ونماء الصحابة كالزرع الذي يزرعه

الإنسان ، فيبدأ ضعيفًا ثم يقوى شيئًا فشيئًا .

٩- العمق بالغوص في أعماق النفس الإنسانية ، واستخراج مكنوناتها ومواجهتها بما لم تكن تعرفه عن نفسها ، والدقة الدقيقة في كشف الملامح والسمات النفسية للمؤمن الذي لا يطلع عليها إلا علام الغيوب مع إبراز العناصر المؤثرة من الصور والمشاهد .

١٠- أن المثل بصياغته القوية يشحذ ذهن المتلقي ، ويثير عوامل الرغبة في التلقي والعمل والاستقامة على المنهج ، والترهيب من الأعمال القبيحة والشنيعة للحذر من الوقوع فيها ، مع تحريك الطاقات الفكرية والوجدانية .

١١- حسن استخدام العناصر البشرية التي تدور حولها الأحداث، وتشارك أيضًا في رسم الصورة الأدبية ، بما لها من حركة وحياة وحيوية في الصور بما يحيى المشاهد في نفس أصحابها ومتلقيها .

١٢- ولم ينس (الشيطان بمال له من أثر فعال كعنصر غيبي أيضًا .

١٣- عناصر الأمثال منتزعة من البيئة (المشكاة ، الزيت ، المصباح ، الزجاج ، الشجرة النعاج ، المحراب ، شفا حفرة ، الزرع ، أجزاؤه ، جنة ، ربوة ، الوابل ، الطل ، نخيل أعناب ، كل الثمرات) وهي قريبة المنال من الإنسان ، وبينه وبينها من الإلف الشيء الكثير فارتقى بها التعبير القرآني إلى مرحلة عالية من البلاغة والتذوق الأدبي ، مما جعلها مثلاً أعلى في التعبير ، واستخدامها كمفردات لرسم هذه الصور الأدبية الرائعة لكل

موقف على حدة .

١٤- وانتزعت الأمثال بعض عناصرها من الطبيعة أيضًا (كوكب دري ، زلزال ، النار ، إعصار ، الأنهار) وهى قرينة كذلك بالإنسان . وله بها إلف ، واستغلالها في تكوين الصورة أبدع استغلال ، جعلها قرينة التأثير في المتلقي .

١٥- وهناك أحوال نفسية تبين صفات في أصحابها ، وتشي بملامحهم النفسية ، وهى عوامل أساسية في رسم الصورة الأدبية لأصحابها (كالبأساء والضراء ، وزلل القدم ، وأشداء ،رحماء ، وركعًا، وسجدًا ، غيظ الكفار، المس الشيطاني) .

١٦- ضرب الأمثال رحمة من الله بعباده لمعاونة المؤمن في الوصول إلى الحقائق بصورة محسوسة مشخصة محببة إلى النفس بعيدًا عن المعنوي الصرف الذي يكون بعيد المنال على كثير من الناس .

ومن جمع الأمثال لهذه المزايا كلها ، من عذوبة اللفظ ودقته وجزالته وفخامته وقوة العبارة ، وحسن سبكها ، وجمال تعبيرها ، وحسن الصورة في المشاهد المتتابعة المصورة لأحوال النفس الإنسانية في حال ضعفها وقوتها مع سمو المعنى ، ونبل المقصد وعظم الغاية ، وشرف الهدف ، كان للأمثال هذه المنزلة العظيمة التي دعا الله تعالى عباده إلى تعقلها ، فقال : ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾[1] ، وتلك خاصية الأمثال ألا يعقلها إلا العالمون ، فإذا انضم إلى

(١) العنكبوت - ٤٣.

ذلك شرف الموضوع وهو الإيمان والمؤمنون ، وشرف المعالجة الربانية التي ترعى وتوجه وتحذر وتحمي راسمة المنهج ، وموضحة معالم الطريق للجماعة المسلمة الأولى ، ولكل من أتى بعدها من جماعة المؤمنين في كل زمان ومكان ، فلا شك أن هذا أمر جليل لاجتماع جمال الوسيلة مع شرف الغاية مما أظهر قمة الإعجاز القرآني في الأمثال إعجازًا أدبيًا وفنيًا أصيلا في أمثال المؤمنين في القرآن الكريم .

(٦١٨)

مسرد بأهم المراجع والمصادر

١- القرآن الكريم .

٢- الإتقان في علوم القرآن للسيوطي الطبعة الثالثة - ١٩٥١م مصطفى البابي الحلبي - مصر .

٣- أدب الدنيا والدين لأبي الحسن البصري الماوردي الطبعة السابعة عشرة - ١٩٢٨ م المطبعة الأميرية القاهرة .

٤- أربعة عشر قرنًا مع القرآن الكريم أ/ عبد الخالق أبو رابية المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - ١٢٦ - ١٩٧٢م .

٥- أساس البلاغة للزمخشري تحقيق عبد الرحيم محمود - ١٣٩٩هـ ١٩٧٩م دار المعرفة بيروت .

٦- أسباب النزول لأبي الحسن الواحدي النيسابوري - ١٩٦٨ م مكتبة الحلبي بالقاهرة .

٧- أسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني تحقيق عبد المنعم خفاجي مكتبة القاهرة الطبعة الأولى - ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢ م .

٨- الاشتراكية العربية في ضوء الإسلام للشيخ عبد الرحيم فودة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - ٦٥- القاهرة - ١٩٦٦م .

٩- أضواء على مشكلات من أخبار الأنبياء ، مصطفى الحديدي الطير المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - ١٨١القاهرة - ١٩٧٦م .

(٦١٩)

١٠- الإعجاز الفني في القرآن / عمر السلامي مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله تونس ط - ١٩٨٠م .

١١- إعراب القرآن للزجاج تحقيق إبراهيم الإبياري وزارة الثقافة والإرشاد القومي - ١٩٦٣ م القاهرة .

١٢- أعلام الموقعين عن رب العالمين لابن القيم الجوزية ، تحقيق عبد الرحمن الوكيل ، دار الكتب الحديثة بالقاهرة ونسخة أخرى تحقيق محي الدين عبدالحميد.

١٣- الأمثال في القرآن الكريم لابن القيم تحقيق سعيد محمد نمر الخطيب - دار الباز للنشر مكة المكرمة .

١٤- الأمثال في القرآن الكريم د/ محمود الشريف - اقرأ - ٢٦٥- ط ٢ - دار المعارف بمصر ١٩٦٥م .

١٥- الأمثال في النثر العربي القديم مع مقارنتها بنظائرها في الآداب السامية الأخرى د/ عبد المجيد عابدين الطبعة الأولى دار مصر للطباعة .

١٦- الأمثال من الكتاب والسنة للترمذي تحقيق علي محمد البجاوي - دار نهضة مصر للطبع والنشر القاهرة .

١٧- الأمثال في القرآن للشيخ / محمد متولي الشعراوي / إعداد عبد القادر أحمد عطا ط ١٩٨٠م دار المسلم المطبعة الفنية بالقاهرة .

١٨- الأمثال والمثل والتمثل والمثلات في القرآن / سميح عاطف الزين ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ط الأولى - ١٤٠٧ هـ ١٩٨٧م .

١٩- بديع القرآن المجيد لابن أبي الأصبع المصري ، تقديم وتحقيق حفني محمد شرف ط أولى نهضة مصر بالفجالة .

٢٠- البرهان في علوم القرآن للزركشي تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم الطبعة الأولى - ١٩٥٧م - دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي القاهرة .

٢١- البيان القرآني د/ محمد رجب البيومي مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر - ١٩٧١م .

٢٢- تاريخ آداب العرب للرافعي الطبعة الثانية - ١٩٧٤م . دار الكتاب العربي ، بيروت لبنان .

٢٣- تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ، تحقيق السيد أحمد صقر الطبعة الثانية - ١٩٧٣ - دار التراث بالقاهرة .

٢٤- تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن لابن أبي الإصبع المصري ، تحقيق د/ حفني محمد شرف - ١٣٨٧هـ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة .

٢٥- التسهيل لعلوم التنزيل ، للإمام محمد بن أحمد الغرناطي ، تحقيق محمد عبد المنعم اليونسي ، وإبراهيم عطوة عوض ط أولى ، دار الكتب الحديثة بالقاهرة .

٢٦- التصوير الفني في القرآن / سيد قطب ، دار الشروق ، بيروت القاهرة .

٢٧- التعبير الفني في القرآن الكريم د/ بكري شيخ أمين - دار الشروق - الطبعة الثالثة - ١٣٩٩هـ ١٩٧٩م .

٢٨- تفسير ابن كثير الطبعة الأولى دار الفكر - ١٩٨٠ .

٢٩- تفسير أبي السعود (إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم) تصحيح محمد عبد اللطيف ، مطبعة محمد علي صبيح بالقاهرة .

٣٠- تفسير الألوسي (روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني) للإمام أبي الفضل البغدادي الألوسي ط - ١٩٧٨م ، دار الفكر بيروت .

٣١- تفسير الخازن (لباب التأويل في معاني التنزيل) للإمام الخازن ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت لبنان .

٣٣- تفسير الرازي (مفاتيح الغيب) للإمام الفخر الرازي الطبعة الأولى مطبعة عبد الرحمن محمد ، ميدان الأزهر مصر ، وطبعة أخرى دار الكتب العلمية بطهران .

٣٤- تفسير سورة النور لأبي الأعلى المودودي - ط ١٩٧٧ دار الاعتصام بالقاهرة ، طبعة دار الفكر بدمشق .

٣٥- تفسير الطبري (جامع البيان في تفسير القرآن) لأبي جعفر الطبري

وبهامشه تفسير (غرائب القرآن ورغائب الفرقان) للإمام النيسابوري الطبعة الأولى ١٣٩٨هـ، ١٩٧٨م دار المعارف للنشر والطباعة ، وطبعة أخرى دار الفكر بيروت .

٣٦- تفسير القرطبي الجامع لأحكام القرآن) للإمام القرطبي طبعة دار الكتب المصرية ١٩٤٦م وغيرها من الطبعات .

٣٧- تفسير المنار / محمد رشيد رضا ، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٢م .

٣٨- التفسير الواضح د/ محمد محمود حجازي ط الثامنة ١٩٧٧م مطبعة الاستقلال الكبرى بالقاهرة .

٣٩- تلخيص البيان في مجاز القرآن للشريف الرضى تحقيق / محمد عبد الغني حسن الطبعة الأولى ، ١٩٥٥ م دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي ، القاهرة .

٤٠- التمثيل في القرآن الكريم / خليل محمد خليل / سلسلة كتب إسلامية - ١٨٣ - ١٩٧٦ م المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

٤١- جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب / أحمد الهاشمي الطبعة السابعة والعشرون ، ١٩٧٨م دار الكتب العلمية بيروت.

٤٢- حاشية الشهاب (عناية القاضي وكفاية الراضي) على تفسير البيضاوي للشيخ أحمد بن محمد شهاب الدين الخفاجي المصري ، المكتبة الإسلامية ديار بكر ، تركيا .

٤٣- الحكم والأمثال ، لجنة من أدباء الأقطار العربية ، دار المعارف بمصر.

٤٤- الدين الخالص أو إرشاد الخلق إلى دين الحق / محمود محمد خطاب السبكي - الجمعية الشرعية - مصر ، دون تاريخ .

٤٥- روائع القرآن للبوطي مكتبة الفارابي الطبعة الخامسة ، ١٣٩٧هـ ، ١٩٧٧ م دمشق ، سوريا .

٤٦- صفوة التفاسير للصابوني الطبعة الأولى ١٩٧٩ دار القرآن الكريم بيروت الطبعة الرابعة ، ١٤٠٢هـ ١٩٨١م .

٤٧- العقد الفريد لابن عبد ربه ، تحقيق محمد سعيد العريان ، دار الفكر بالقاهرة .

٤٨- علوم القرآن والتفسير د/ عبد الله شحاته - دار الاعتصام ، بالقاهرة .

٤٩- العمدة في محاسن الشعر ونقده لابن رشيق القيرواني تحقيق محدم قرقزان الطبعة الثانية ١٤١٤هـ ، ١٩٩٤م . مطبعة الكاتب العربي بدمشق سوريا .

٥٠- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير للإمام محمد بن علي الشوكاني ، ط الثانية ، ١٩٦٤م وطبعة أخرى.

٥١- فقه اللغة وأسرار العربية لأبي منصور الثعالبي ١٣١٨هـ منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت لبنان .

٥٢- الفن ومذاهبه في النثر العربي د/ شوقي ضيف الطبعة التاسعة ،دار المعارف المصرية .

٥٣- في ظلال القرآن أ/ سيد قطب دار الشروق بيروت الطبعة التاسعة ١٤٠٠هـ ، ١٩٨٠م .

٥٤- القرآن أحسن الحديث للشيخ / خلف محمد الحسيني المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة دراسات في الإسلام العدد - ١٩٩- ١٩٧٧م .

٥٥- قطوف من ثمار الأدب في الجاهلية وصدر الإسلام د/ عبد السلام سرحان ، الطبعة الثانية - ١٣٩٠هـ ١٩٧٠م ، مطبعة الفجالة بالقاهرة .

٥٦- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعنوان الأقاويل في وجوه التأويل ، للإمام جار الله الزمخشري ، الطبعة الأولى ١٣٥٤هـ المكتبة التجارية بمصر .

٥٧- الكليات لأبي البقاء الكفوي مؤسسة : الرسالة الطبعة الثانية ١٤١٣هـ ، ١٩٩٣م ، بيروت .

٥٨- كما تحدث القرآن / خالد محمد خالد ١٩٦٢م مكتبة وهبة القاهرة

٦٠- لمحات من الإعجاز البياني في القرآن الكريم أ/ خليل محمد خليل - كتب إسلامية - ١٩٨ ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة ، ١٩٧٧م .

٦١- مباحث في علوم القرآن مناع القطان ، مؤسسة دار الرسالة ، الطبعة السابعة ، ١٤٠٠هـ ، ١٩٣٩م . بيروت .

٦٢- المثل المقارن بين العربية والإنجليزية د/ ممدوح حقي ، دار النجاح ، بيروت .

٦٣- مجمع الأمثال للميداني ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد دار الفكر الطبعة الثالثة ، ١٩٧٢م .

٦٤- مختصر تفسير ابن كثير للصابوني ، دار القرآن الكريم ، بيروت الطبعة السابعة ١٤٠٢هـ ، ١٩٨١م .

٦٥- المزهر في علوم اللغة وأنواعها للسيوطي ، شرح جاد المولى والبجاوي ، وأبو الفضل إبراهيم ، الطبعة العاشرة ١٣٢٠ هـ دار الفكر بيروت ، لبنان .

٦٦- المستطرف في كل فن مستظرف لشهاب الدين بن أحمد الأبشيهي ، مطبعة التقويم ، بدرب الدليل مصر .

٦٧- مع الأنبياء من القرآن الكريم أ/ عفيف عبد الفتاح طبارة ، دار العلم للملايين ، بيروت .

٦٨- معترك الأقران في إعجاز القرآن للسيوطي تحقيق علي محمد البجاوي ، دار الفكر .

٦٩- معجزة الأرقام والترقيم د/ عبد الرازق نوفل - كتاب اليوم ١٦٣-١٩٨٢م .

٧٠- المعجزة الكبرى القرآن / محمد أبو زهرة ، دار الفكر العربي - القاهرة .

٧١- معجم المصطلحات في اللغة والأدب مجدي وهبه ، كامل المهندس الطبعة الثانية ١٩٨٤م مكتبة لبنان بيروت .

٧٢- المعجم الوسيط ، مجمع اللغة العربية .

٧٣- مفردات غريب القرآن للراغب الأصفهاني ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان .

٧٤- منهج القرآن في حياة المجتمع للشيخ / محمود شلتوت كتاب الهلال - ٣٧٠ - ١٩٨١م دار الهلال بمصر .

٧٥- موجز البيان في مباحث القران أ/ كمال الدين الطائي الطبعة الثانية - ١٩٧١ مطبعة سليمان الأعظمي . بغداد .

٧٦- موسوعة الأمثال القرآنية د/ محمد عبد الوهاب عبد اللطيف ، مكتبة الآداب القاهرة (رسالة دكتوراة) .

٧٧- النهج القويم في دراسة علوم القرآن الكريم د/ عبد الغني عوض الراجحي ، عيسى البابي الحلبي ، القاهرة .